فتح الخالق

في

تفسير سورة الطارق

دراسة عملية تحليلية جديدة

بقلم

أ. د. إسماعيل عبد العزيز محمود أبو شطره

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

جامعة الأزهر – إسكندرية

١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام الأنبياء، وسيد المرسلين، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله ومن سار على نهجهم بإحسان إلى يوم الدين **وبعد...،**

فإن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى، والمنحة الربانية القصوى والنعمة الإلهية العظمى، أنزله الله على حبيبه ومجتباه، ورسوله ومصطفاه، سيدنا محمد بن عبد الله، فتحدى به العرب وأعجزهم، وهم أهل اللسان، وأرباب الفصاحة، وفرسان البلاغة، و ملوك البيان، فلم يستطيعوا أن يأتوا بحديث مثله ولا بسورة ولا بعشر، وهذا الوليد بن المغيرة يقول عن القرآن الكريم: والله إني سمعت من محمد كلاماً انفاً، والله ما هو بكلام الإنس ولا بكلام الجن، والله إن له لحلاوة وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وأنه ليحطم ما تحته وإنه ليعلوا ولا يعلى عليه!

وسيظل القرآن الكريم معجزة المعجزات وأية الآيات، شامخاً متحدياً للإنس والجن إلى قيام الساعة ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**﴾ [الإسراء: ٨٨]، وسيظل محفوفاً بعناية الله، محفوظاً برعايته، منيعاً بقوته رغم أنف الحاقدين عليه والمعادين له ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر:٩].

وسورة **الطارق** التي يدور حولها البحث قد استلفتت نظري واستولت على فكري فترة من الزمن، فوقفت بين ثناياها لأكشف عن بعض أوجه الإعجاز العلمي فيها.

والعلم ما هو إلا دعوة القرآن الكريم حيث لم يطلب القرآن مزيداً من أي شئ آخر غير العلم حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً**﴾ [طه: ١١٤]، فلا ضير إن فسر القرآن بالعلم، ولا غرو من أن يحتضن القرآن الكريم التفسير العلمي الذي هو ثمرة من ثماره، ونبتة من غراثه.

فإن أصاب التفسير العلمي الحقيقة فله أجران وأن أخطأ فله أجر واحد، ولا يكون عند الخطأ العلمي عيب في اللفظ القرآني، وإنما يوجه القصور دائماً إلى النظرية العلمية التي لم ترتق إلى درجة الحقيقة، وقد سميته بعون المعبود الرازق **(فتح الخالق في تفسير سورة الطارق)** دراسة علمية تحليلية جديدة.

وقد دارت الخطة فيه كالتالي:

أولاً : وجه التسمية بسورة الطارق.
ثانياً : اسم السورة.
ثالثاً : مكان نزول سورة الطارق.
رابعاً : ترتيبها من حيث النزول.
خامساً : ترتيبها في المصحف الشريف.
سادساً : عدد آياتها المباركات.
سابعاً : عدد كلماتها النورانيات.
ثامناً : عدد حروفها الطاهرات.
تاسعاً : مناسبة السورة بما قبلها وما بعدها.
عاشراً : ذكرت عنواناً مناسباً لما يندرج تحته من آيات.
حادي عشر : سبب النزول.
ثاني عشر : المعاني اللغوية للآيات المباركات.
ثالث عشر : فقه الآيات المباركات معرجاً فيه على آراء علماء التفسير والحديث الشريف (والعلم الحديث)
رابع عشر : ذكرت ما تريد إليه الآيات.
خامس عشر: ذكرت أرقام الآيات القرآنية مع ذكر سورها، وخرجت الأحاديث النبوية
سادس عشر: التزمت المنهج التاريخي.
سابع عشر: أثبت مراجع البحث في هامش الصفحات.

فهذا هو جهد المقل والله أسأل أن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه وأن يرزقنا الإخلاص والقبول والتوفيق وأن يبارك لنا في القرآن الكريم وسنة النبي الأمين. ولا أدعي كمالاً إذ الكمال لله وحده والعصمة لأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام. وصلى الله على سيدنا محمد والحمد لله رب العالمين.

أ. د. إسماعيل عبد العزيز محمود (أبو شطره)
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالإسكندرية

بين يدي سورة الطارق

أولاً: وجه تسميتها بهذا الاسم البديع:

سميت السورة المباركة بهذا الاسم البديع وذلك لاشتمالها على ذكر الطارق في ثناياها، ولأنه أوضح شئ وأميزه وأبرزه بين ربوعها. ويجب أن يُعلم أن تسميتها بهذا الاسم الكريم لم يكن باجتهاد أحد من الصحابة الكرام .. رضوان الله عليهم أجمعين، وإنما هو ثابت بالتوقيف عن المعصوم سيدنا رسول الله ﷺ وكذا جميع سور القرآن العزيز، فهو ما لا مجال للرأي فيه، ولا اجتهاد.

قال الجعبري: حد السورة قرآن يشتمل على آي ذي فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات. وقال غيره: السورة الطائفة المترجمة توقيفاً. أي المسماة باسم خاص بتوقيف من النبي ﷺ، وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار(١).

ثانياً: أسماء السورة المجيدة:

لم أعثر للسورة الكريمة في ثنايا كتب التفسير وعلوم القرآن على أكثر من اسم فهي لم تُسم إلا بسورة **(الطارق)** فقط، ولم تشترك مع غيرها في تعدد الأسماء، وأخص بالذكر السور ذوات الأسماء المتعددة كالفاتحة وغيرها.

وقد مال الإمام الزركشي في البرهان إلى القول بالتوقيف حتى في أسماء السور ذوات الأسماء الكثيرة، واستبعد القول بأنه مما يظهر من المناسبات ونقله عنه أيضاً الإمام السيوطي في تقاته حيث قال الزركشي: "ينبغي البحث عن تعدد الأسامي، هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات؟".

فإن كان الثاني، فلم يعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسماء (وهو بعيد، قال: وينبغي النظر في اختصاص كل سورة بما سُميت به، ولا شك أن العرب تراعي في كثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشئ من خلق أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم، أو أكثر، أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام والقصيدة الطويلة، بما هو أشهر فيها وعلى ذلك جرت أسماء القرآن المجيد(٢).

(١) الرهان في علوم القرآن: الأمام الزركشى (٢٧/١)، الإتقان في علوم القرآن (٧٣/١).
(٢) البرهان في علوم القرآن: (٢٧٠/١)، والإتقان في علوم القرآن: (٧٣/١)

ثالثاً: المكان الذي نزلت فيه سورة الطارق:

سورة الطارق مكية باتفاق أهل التفسير

رابعاً: ترتيبها من حيث النزول:

نزلت بعد سورة البلد. وقبل سورة القمر(١).

خامساً: ترتيب السورة المباركة في المصحف العظيم:

تقع سورة الطارق من حيث ترتيبها في المصحف الشريف بين سورتي البروج والأعلى، فهي السورة السادسة والثمانون من حيث ترتيبها في المصحف الشريف.

سادساً: عدد آياتها المباركات:

لم أعثر على خلاف في عدد آياتها الكريمات فهي سبع عشرة آية.

سابعاً: عدد كلماتها المجيدات:

كلماتها الشريفة إحدى وستون كلمة.

ثامناً: عدد حروفها الطاهرات:

مائتان وإحدى وسبعون حرفاً.

تاسعاً: مناسبة السورة الجليلة لما قبلها:

لَمَّا أقسم الله سبحانه وتعالى فى سور البروج بالسماء ذات الحصون والقصور، وهي البروج أي النجوم حيث يقول سبحانه وتعظم: ﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ**﴾(٢)، أتبعه القسم بالسماء، وزاده قسماً آخر بفرد من أفراد النجوم المذكورة في سورة "البروج" وهو الطارق الذى يثقب ضوؤه الظلماء، ويتجلى واضحاً لكل ذى عينين فلا يحتاج إلى دليل فقال سبحانه وتعالى: ﴿**وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ**﴾(٣).

(١) الإتقان فى علوم القرآن (١٣/١).
(٢) سورة البروج: الآية الكريمة رقم (١).
(٣) سورة الطارق: الآية الكريمة رقم (١).

وهناك مناسبة أخرى بين خاتمة سورة البروج، وبداية سورة الطارق، وهي: قوله سبحانه وتنزه: ﴿**بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ، وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ، بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ، فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ**﴾[1]، حيث انحصر أمر الذين كفروا في التكذيب للرسالات والمرسلين، وزاد ولوعهم به، حتى غمرهم وأغرقوا في بحار شهوته، وبراثن عفنه، فلم يترك لهم مساحة لتدبر، ولا متسعاً لنظر، ولا مجالاً لتفكر!! لأنه أحاط بهم كما يحيط الظرف بالمظروف! ولا يظن هؤلاء المكذبون أنهم سيفلتون من قبضة الله وقوته فلن يعجزوه سبحانه أو يهربوا منه فهو من ورائهم محيط قاهر قادر جبار منتقم! فأنى لهم الهرب؟ وأنى لهم التفلت؟ وأي ملجأ يلجؤن؟وإليه الملجأ والمعاد والمصير!

ولما صبوا جام تكذيبهم على القرآن الكريم تارة بقولهم: أساطير الأولين، وأخرى بأنه إفك مُفترى، أي: كذب مُختلق، ومرة بأنه شِعْر إلى غير ذلك من ألوان الطغيان والافتراء، والكذب والاعتداء، وصنوف الكفر من غير انتهاء! قاتلهم الله.

أضرب الله عنهم بقوله جلت قدرته: ﴿**بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ، فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ**﴾، فهو قرآن كريم شريف عظيم من غير نهاية لحد أو حصر لعد، وهو في لوح محفوظ، محاط بألوان الحفظ وأصناف التحصن وضروب التصون، ومعاني الحماية، وفائق العناية.

فهو محفوظ في الملأ الأعلى العلوي، وعند تنزلاته نجوماً إلى العالم السفلي فلا يمكن أن تتطرق إليه يد عابث، أو بنان منافس، أو فكر مشاكس، أو عقل حاقد معاكس، لا بالتبديل أو التغيير أو التحريف أو التزويد أو التعديل ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[2]، وسيظل محفوظاً هكذا أبد الآباد، ما دق في الجسم فؤاد، وتحركت في الصدور أنفاس، وما بقيت دنيا الناس.

ولما كان هذا شأن القرآن في الحفظ فكذلك شأن الإنسان حيث قال الله تعالت عظمته: ﴿**إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ**﴾[3]، وهنا تبدو المناسبة واضحة جلية، فمن كان قادراً على حفظ وحيه من التغيير والأرجاس فهو سبحانه وتعالى قادر على حفظ جميع الناس حفظاً بعد الأنفاس والأقوال الأعمال، وحفظاً من الشطيان أو الجان فلا يُبغى

(١) سورة البروج: الآيات الكريمات رقم (١٩-٢٢)
(٢) سورة الحجر: الآية الكريمة (٩).
(٣) سورة الطارق: الآية الكريمة (٤).

عليه، أو يُغتال. فكما أن القرآن الكريم لم يخص طائفة مُعينة بل نزل لكل طوائف البشرية على اختلاف أجناسها وألوانها كافة للناس بشيراً ونذيراً فكذا الحفظة وكلوا بكل النفوس مؤمنة وكافرة، طائعة، وعاصية، برة وفاجرة، وإله هذا شأنه لم يميز فى قانون الحفظ بين مؤمن وكافر، أو ليس الأولى الانقياد له والإيمان به والإذعان لرسالته والاستسلام لشرعته؟

عاشراً: مناسبة السورة الجليلة لما بعدها:

تظهر المناسبة بين سورتي الطارق والأعلى واضحة جليّةً حيث يأمر الله نبيه وحبيبه سيدنا محمد ﷺ فى سورة الطارق بإمهال الكافرين إمهالاً قليلاً قريباً حيث قال جلت حكمته: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾(١).

ولما كان صلوات الله عليه وتسليماته هو المأذون بإمهالهم، والموافق عليه، صار كأنه صاحب هذا الإذن وذلك الأمر، وذلك لمشاركته فيه من أول الأمر مشاركة تقطع بالشك.

لا جرم قال له في سورة الأعلى "سبح اسم ربك الأعلى" أي نزه ومجد وعظم ربك الذي رباك على جوه نعمه، الذي يعلو ولا يعلي عليه سبحانه وتعالى.

والعلاقة بين الأمر بالإمهال والأمر بالتسبيح تبدو واضحة، حيث أن من أمرت بتنزيهه سبحانه هو ربك وهو الأعلى وهو الخالق "الذي خلق" وهو المسوي "فسوى"، وهو المقدر "الذي قدر"، وهو الهادي "فهدى".

ومن كانت هذه صفاته فلا يصعب عليه إما إهلاك الكافرين بالإبادة والانتقام في الدنيا، وإما هدايتهم؛

فلا تستعجل، ومهل الكافرين، وسبح ربك الخلاق العظيم.

(١) سورة الطارق: الآية الكريمة (١٧).

حفظ الرحمن للإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)﴾.

أولاً: أسباب النزول:

نزلت في أبى طالب وذلك أنه أتى النبي ﷺ بخبز ولبن فبينما هو جالس إذ انحط نجم فامتلأ ماء ثم ناراً ففزع أبو طالب وقال أي شئ هذا قال: هذا رمى به وهو آية من آيات الله تعالى فعجب أبو طالب فأنزل الله هذه الآية[١].

وقد ذكر الإمام القرطبي سبب النزول مروياً عن أبى صالح عن ابن عباس، ولكنه قال: فامتلأت الأرض نوراً[٢]. بدلاً مما هو عند الإمام الواحدى فامتلأ ماء ثم ناراً ولا نستطيع الجزم بصحة أي من كليهما عن الآخر، وذلك لأن النور إنما يتم انبثاقه من النار فهى أصل للنور، وهو فرع عنها، وعلى أية حال فلا يوجد تصادم بين ما قاله الإمامان وهذا يكون مُعضداً لما قلناه سابقاً بأن السورة الجليلة نزلت بمكة المُكرمة لأن أبا طالب كان بمكة ومات بها وشهرة تُغنى عن الذكر. وجاء عند الإمام الفخر الرازي رحمه الله التعبير بلفظ يشعر أن السورة كلها نزلت وذلك غير ما جاء في أسباب النزول للواحدى لأنه عند الواحدى فأنزل الله هذه الآية[٣].

المعاني اللغوية للآيات المباركات:

السماء: يُذكر ويؤنث، وجمعه أسمية وسماوات. والسماء كل ما علاك فأظلك ومنه قيل لسقف البيت سماء.

والسماء ولا المطر يقال: مازلنا نطأ السماء حتى أتيناكم.

والسمو: الارتفاع والعلو، يُقال: سموت، وسميت، مثل علوت وعليت وسلوت وسليت... وتساموا أى تباروا والسماوة: موضع بالبادية ناحية العواصم[٤].

(١) أسباب النزول: الإمام الواحدى: [ص ٣٢٧].
(٢) الجامع لأحكام القرآن: الإمام القرطبى: [١/٢٠].
(٣) مفاتيح الغيب: [١٢٨/٣٢].
(٤) مُختار الصحاح: الإمام مُحمد بن أبى بكر الرازي: [٣١٥، ٣١٦].

والسماء: الجهة التى تعلو الأرض، وتظهر فيها النجوم والكواكب وهي تؤنث وتُذكر (...**السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ..**)[١] مُذكر، (**أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا**)[٢] مُؤنثة وتُجمع على سماءات وسموات. واستعمل القرآن الكريم سماوات بقلب همزتها واواً مع حذف الألف رسماً لا نُطقاً: (**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ..**)[٣، ٤].

الطارق: هو كل نجم سائر في السماء[٥].

وطارق: إذا جاء ليلاً، والطارق: النجم الذى يُقال له كوكب الصبح[٦].

و **(ما)** على تسعة أوجه:

١- الاستفهام نحو ما عندك؟
٢- خبرية نحو رأيت ما عندك.
٣- جزائية نحو ما تفعل أفعل.
٤- تعجبية نحو ما أحسن زيداً.
٥- في تأويل المصدر مع الفعل نحو بلغني ما صنعت، أى صنيعك.
٦- نكرة يلزمها النعت نحو مررت بما مُعجب لك أي بشئ مُعجب لك.
٧- زائدة كافة عن العمل نحو إنما زيد منطلق.
٨- غير كافة نحو قوله تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ..**﴾[٧].
٩- نافية نحو ما خرج زيد وما زيد خارجاً ..

وتجئ محذوفة منها الألف إذا ضممت إليها حرفاً نحو لم وبم و﴿**عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ**﴾[٨، ٩] فمن سنن العرب أن تُحذف الألف من "ما" إذا استفهمت بها فقول: فقول: بم ز لم و علام وفيم؟[١٠].

---

(١) سورة المُزمل: جزء من الآية الكريمة رقم [١٨].
(٢) سورة النازعات: جزء من الآية الكريمة رقم [٢٧].
(٣) سورة البقرة: جزء من الآية الكريمة رقم [٢٩].
(٤) القاموس القويم للقرآن الكريم: الأستاذ إبراهيم أحمد: [٣٢٠/١].
(٥) القاموس القويم: [٤٠١/١].
(٦) مختار الصحاح: [ص ٣٩١].
(٧) سورة آل عمران: جزء من الآية المباركة رقم [١٥٩].
(٨) سورة النبأ: الآية المباركة رقم [١].
(٩) مختار الصحاح: [ص ٦١٣] بتصرف، القاموس القديم: [٢/ ٢١٣، ٢١٤].
(١٠) فقه اللغة وأسرار العربية: للإمام الثعالبي، ص ٣٣٦.

أدراك: درى دريت الشئ من باب رمى، ودرية، ودراية علمته ويعدى بالهمزة، فيقال: أدريته به[١] ..

النجم: الكوكب والجمع أنجم ونجوم مثل فلس وأفلس وفلوس. وكانت العرب تؤقت بطلوع النجوم لأنهم ما كانوا يعرفون الحساب، وإنما يحفظون أوقات السنة بالأنواء وكانوا يسمون الوقت الذي يحل فيه الأداء نجماً تجوّزا لأن الأداء لا يُعرف إلا بالنجم ثم توسعوا حتى سموا الوظيفة نجماً لوقوعها في الأصل في الوقت الذي يطلع فيه النجم، واشتقوا منه فقالوا: نجّمت الدين بالتثقيل إذا جعلته نجوماً .. وإذا أطلقت العرب النجم أرادوا الثريا وهم علم عليها بالألف واللام. والنجم من النبات ما لا ساق له والشجر ما له ساق يُعْظم ويُقوم به وفي التنزيل: ﴿**وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ**﴾[٢] ونجم النبات وغيره نجوماً من باب قعد: طلع[٣].

الثاقب: الثقب: الخرق النافذ جمع: أثقب، وثقوب ثقبه وثقَّبة. فانثقب وتثقب وتثقبته.. وثقبت النار ثقوباً: اتقدت وثقبها هو تثقيباً، وأثقبها وتثقبا. والثقوب كصبور وكتاب: ما أثقبها والكوكب أضاء والرائحة سطعت وهاجت والناقة غزُر لبنها ورأيه نفذ، وهو مثقب كمنبر: نافذ الرأي والنجم الثاقب المرتفع على النجوم أو اسم زحل[٤].

إن: بكسر الهمزة سكون النون ترد على أربعة أوجه:

١- أن تكون شرطية جازمة نحو: ﴿**إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ**﴾[٥]. وقوله تعالى: ﴿**وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ**﴾ [٦]. وقد تدغم إن الشرطية في لا النافية مثل: ﴿**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ**﴾[٧]، و﴿.. **وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ** ..﴾[٨].

٢- وتكون إن حرف نفى مثل: ﴿**إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ**﴾[٩]، و﴿..**إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ** ..﴾[١٠]، و﴿.. **إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى** ..﴾[١١]، و﴿.. **إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ**

(١) المصباح المنير: العلامة الفيومي [ص ٧٤].
(٢) سورة الرحمن: الآية المجيدة رقم [٦].
(٣) المصباح المنير: [ص ٢٢٧]
(٤) القاموس المحيط: العلامة الفيروزآبادي [١٣٥/١].
(٥) سورة الأنفال: من الآية رقم [٣٨].
(٦) سورة الأنفال: من الآية رقم [١٩].
(٧) سورة التوبة: من الآية رقم [٤٠].
(٨) سورة يوسف: من الآية رقم [٣٣].
(٩) سورة الملك: من الآية رقم [٢٠].
(١٠) سورة المجادلة: من الآية رقم [٢].
(١١) سورة التوبة: من الآية رقم [١٠٧].

قَلِيلاً..﴾[١]، و﴿.. إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً﴾[٢]، ويكثر استعمال "إن" النافية في أسلوب الاستثناء وتأتي بعدها إلا كما مر أو تأتي بعدها لما التي بمعنى إلا مثل: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[٣].

وقد تأتي إن النافية في غير أسلوب الاستثناء مثل: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾[٤]، أي ما عندكم، وقوله: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ..﴾[٥]، أي ما أدري، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ..﴾[٦]، فيحتمل أن تكون إن زائدة للتوكيد ويحتمل أن تكون نافية، أي في الذي ما مكناهم فيه، ويؤيد النفي قوله: ﴿..مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ..﴾[٧]، واجتمعت واجتمعت إن الشرطية وإن النافية في قوله: ﴿..وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ..﴾[٨]، الأولى شرطية والثانية نافية، أي ما أمسكهما.

٣- وتكون إن مُخففة من الثقيلة للتوكيد كقوله: ﴿..إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ..﴾[٩]، ومثل: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[١٠]، في قراءة من خفف لما وكذلك في قوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[١١]، يحتمل أنها إن "النافية"، ولما مشددة في قراءة حفص، ويحتمل أنها المخففة وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ ...﴾ يحتمل أن تكون إن النافية ولما مشددة بمعنى إلا في قراءة حفص، ويحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة و"ما" زائدة في قراءة من خفف "لما" فاللام مؤكدة وما الزائدة مؤكدة، ومن المخُففة من الثقيلة قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ..﴾[١٢] و﴿..وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ

(١) سورة المؤمنون: من الآية رقم [١١٤].
(٢) سورة الكهف: من الآية رقم [٥].
(٣) سورة الطارق: الآية رقم [٤].
(٤) سورة يونس: من الآية رقم [٦٨]
(٥) سورة الجن: من الآية رقم [٢٥].
(٦) سورة الأحقاف: من الآية رقم [٢٦].
(٧) سورة الأنعام: من الآية رقم [٦].
(٨) سورة فاطر: من الآية رقم [٤١].
(٩) سورة طه: من الآية رقم [٦٣].
(١٠) سورة الطارق: الآية رقم [٤].
(١١) سورة يس: الآية رقم [٣٢].
(١٢) سورة القلم: من الآية رقم [٥١].

لَفَاسِقِينَ﴾[١] و﴿..**وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الكَاذِبِينَ**﴾[٢] وهي للتوكيد. وإن المخففة من الثقيلة تدخل الجملة الإسمية وعلى الفعلية وهي لا تعمل في الفعلية وينذر عملها فى الاسمية وخففت إن فقل عملها.

٤- أن تكون "إن" زائدة للتوكيد كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ**..﴾[٣] على القول بأنها زائدة كما مر[٤].

كل: كلمة تفيد الاستغراق لأفراد ما تضاف إليه أو أجزائه كما في الحديث "**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**"[٥]، وتستعمل ظرف زمان للتعميم إذا لحقتها ما كما في قوله تعالى: ﴿..**أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ**..﴾[٦]، وقد تقع توكيداً للكلام، كما تستعمل وصفاً مفيداً للكمال نحو هو العالم كل العالم[٧].

نفس: النفس الروح. وذات الشئ وعينه جمع أنفُس ونفوس.

وهي: من الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية وسماها الحكيم الروح الحيوانية فهو جوهر مشرق للبدن، فعند الموت ينقطع ضوءه عن ظاهر البدن وباطنه، وأما في وقت النوم فينقطع عن ظاهر البدن دون فثبت أن النوم والموت من جنس واحد، لأن الموت هو الانقطاع الكلي، والنوم هو الانقطاع الناقص، فثبت أن القادر الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أضرب:

الأول: إن بلغ ضوء النفس إلى جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه فهو اليقظة.

الثاني: إن انقطع ضؤها عن ظاهره دون باطنه فهو النوم.

الثالث: إن انقطع بالكلية عن الظاهر والباطن فهو الموت[٨].

---

(١) سورة الأعراف: من الآية رقم [١٠٢].
(٢) سورة الشعراء: من الآية رقم [١٨٦].
(٣) سورة الأحقاف: من الآية رقم [٢٦].
(٤) القاموس القويم: [٣٩/١، ٤٠].
(٥) ذكره الإمام النووي في رياض الصالحين [١٠٦] وعزاه للإمام مسلم.
(٦) سورة البقرة: من الآية رقم [٨٧].
(٧) المعجم الوجيز: [ص ٥٤٠].
(٨) التعريفات: الإمام الجرجاني [٢٤٢، ٢٤٣] بتصرف وقد قسمها الإمام رحمه الله إلى تسعة نفوس وهي النفس الأمارة واللوامة والمطمئنة والنباتي والحيواني والإنساني والناطقة والقدسية والرحماني.

لمّا: بالتشديد بمعنى إلا، وبالتخفيف ما فيه زائدة وإن هي المخففة من الثقيلة، أي أن كل نفس لعليها حافظ، وحافظ مبتدأ، وعليها الخبر، ويجوز أن يرتفع حافظ بالظرف[١].

عليها: على: حرف خافض يكون اسماً وفعلاً وحرفاً، تقول على زيد ثوبٌ وعلا زيداً ثوب، وألفه تُقلب مع المضموم ياء تقول: عليك وعليه وبعض العرب يتركها على حالها فيقول: علاه وعلاك. وقال الشاعر: **غَدَت مِن عليه تنفض الطل بعدما**. أي غدت من فوقه فهو ها هنا اسم لأن حرف الجر لا يدخل على حرف الجر وقولهم كان كذا على عهد فلان، أي في عهده. وقد توضع موضع "من" كقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ**﴾[٢] أي من الناس وقد توضع موضع الباء ذكره مع شاهده في الباء.. تقول علىّ زيداً وعلىّ بزيد معناه أعطنى زيداً[٣].

حافظ: حفظ الشئ حفظاً صانه وحرسه ويقال حفظ العهد لم يخنه والعلم والكلام ضبطه ووعاه فهو حافظ وحفيظ.

حافظ: على الشئ محافظة وحفاظاً، ورعاه وذب عنه: وعلى الصلوات واظب عليها..

الحافِظ: الحارس، ومن يحفظ القرآن الكريم أو من يحفظ عدداً عظيماً من الحديث.

جمع حُفَّاظ: حَفَظَة والحفظة من الملائكة الذين يحصون أعمال العباد[٤].

فقه الآيات المباركات:

ونتناول فيه بالبحث ما يأتي:

أ- كيف أقسم الله عز وجل بالسماء والطارق مع ورود النهي عن القسم بغير الله سبحانه وتعالى.

ب- أقوال علماء التفسير في معنى ﴿**وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ**﴾.

ج- التفسير العلمي للسماء والطارق في ضوء العلم الحديث.

هـ- أقوال علماء التفسير في معنى جواب القسم.

---

(١) إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن: الإمام أبى البقاء عبد الله بن الحسين العكبري.

(٢) سورة المطففين: الآية رقم [٢].

(٣) مختار الصحاح: من [ص ٤٥٣].

(٤) المعجم الوجيز [١٦٠].

هـ- ما ترشد إليه الآيات.

أ- كيف أقسم الله عز وجل بالسماء وبالطارق مع ورود النهي عن القسم بغير الله سبحانه وتعالى:

وللإجابة على هذا السؤال نقول وبالله التوفيق:

لله سبحانه وتعالى أن يقسم بما شاء من خلقه لأنه سبحانه وتعالى ﴿**لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾(١)، وأما النهي الوارد في الحديث الصحيح عن القسم بغير الله سبحانه وتعالى فهو وارد في شأن العباد، وليس وارداً في حق الرب سبحانه وتعالى وقد جعل الإمام المنذري، والإمام النووي في كتابيهما باباً خاصاً سمياه باب النهي عن الحلف بمخلوق كالنبي، والكعبة والملائكة والسماء والآباء، والحياة والروح والرأس وحياة السلطان ونعمته، وتربة فلان، والأمانة وهي من أشد نهيا ومن الأحاديث التي ذكرت في هذا الصدد: عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سمع رجلاً يقول: "لا والكعبة، فقال ابن عمر: لا تحلف بغير الله فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم يقول: "**من حلف بغير الله فقد كفر**" رواه الترمذي وقال حديث حسن وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرطهما، وفسر بعض العلماء قوله: "كفر وأشرك" على التغليظ، كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قال: "**الرياء شرك**"(٢) وبالنسبة لأقسام الله جل وعلا في القرآن الكريم زيادة على الأول فقيل أنه على حذف مضاف أي ورب السماء ورب الطارق، وكذا الباقي من الأقسام وقيل: إن العرب كانت تعظم هذه الأشياء، وتقسم بها فنزل القرآن على ما يعرفونه وقيل: إن الأقسام إنما تكون بما يعظمه المقسم (بكسر السين) أو يجله وهو فوقه والله تعالى ليس فوقه شئ فاقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته لأنها تدل على بارئ وصانع وقيل القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع، لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل، إذ يستحيل مفعول بغير فاعل. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: إن الله يقسم بما شاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله وقال العلماء: أقسم الله تعالى بالنبي الكريم صلى الله عليه وآله وصحبه

(١) سورة الأنبياء: الآية رقم [٢٣].
(٢) يراجع أحاديث النهي عن الحلف بمخلوق: الترغيب والترهيب للإمام المنذري: الترهيب من الحلف بغير الله: [٣١/٤]، ويراجع رياض الصالحين: النهي عن الحلف بمخلوق [٤٨٣].

وسلم في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(١)، لتعرف الناس عظمته عند الله ومكانته لديه. وعن ابن عباس قال: ما خلق الله ولا ذرأ ولا برأ نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(٢).

ب- أقوال علماء التفسير في معنى ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾:

تطالعنا سورة الطارق وتهل علينا بقسمين بمخلوقين بديعين:

القسم الأول:

بالسماء ذلكم المخلوق الضخم، العظيم الفخم، الشاسع الفسيح، الجميل المليح، الموغل في دقة الصناعة أقصى الدرجارت، المرفوع بلا عمد ويد القدرة عليها باسطات، فهي آية من الآيات ومعجزة من المعجزات الباهرات وهذا المخلوق العجيب لحري أن يستنطق الجمادات، والحيوانات، والنباتات وكل ألوان المخلوقات، الدابة على وجه الأرض، أو غائصة في البحيرات أو سابحة في الهواء وطائرات بأنها لهذه المعجزة شاهدات.

وهذه السماء يشهدها المؤمن، ويحسها الكافر .. فالجميع منتفع بكل ما ترسله من أقوات وأرزاق، فلم لم يصدق الكافر إذاً بقدرة الخلاق؟ ﴿**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ**﴾(٣)، ﴿**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**﴾(٤)، والعجيب كل كل العجب رفعها بهذه الدقة المتناهية، والصورة المترامية، وتشييدها بالشموس والأقمار والنجوم والأفلاك، وما نعرفه وما لا نعرفه من خلائق وأملاك!! والعجب الأعجب أنها ليست سماء واحدة بل هي سبع سموات كما أخبرنا بذلك منزل الآيات، ومرسل النفحات سبحانه وتعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا**

(١) يراجع فى موضوع القسم في القرآن. التبيان في أقسام القرآن: للإمام ابن القيم، الإتقان في علوم القرآن: للإمام السيوطي [٢/١٣٣-١٣٥].
(٢) سورة الحجر: الآية رقم [٧٢].
(٣) سورة الرعد: الآية رقم [٢].
(٤) سورة الذاريات: الآية رقم [٤٧].

﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[1] ففي القسم بالسماء لفت للأنظار إلى التدبر والتأمل والتفكر والاعتبار،، والإيمان بالخالق الجبار سبحانه وتعالى ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2]،﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[3].

والسماء المقسم بها هنا في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ هي المساء المعروفة وليست المطر. يقول الإمام الألوسي: (والسماء) هي المعروفة على ما عليه الجمهور.

وقيل: المطر هنا وهو أحد استعمالاتها ومنه قوله:

إذا نـزل السـماء بـأرض قـوم رعينـاه ولـو كـانوا غضـابا

ولا يخفى حاله[4] وبهذا يتبين لنا ضعف قول من ذهب إلى أن المراد بالسماء المطر.

القسم الثاني: وهو القسم بالطارق:

يقسم الحق جل وعلا في هذه المرة الثانية بعد القَسَم بالسماء بكائن حي يعيش في أحضان هذه السماوات، وهو الطارق الذي لا يُرى إلا ليلاً، فيثقب الظلام ويبدده بضوئه، فهو كائن مضئ، ذو أهمية قصوى في عالم الناس ودنياهم، ولذا وجدنا الخالق يقسم به سبحانه وتعالى. وهذا الطارق يشترك مع باقي الأنجم الأخرى في كونه زينة للسماء كما قال تعالى وتنزه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾[5]، فهذا الطارق حدث جليل وخلق جميل ينبغي أن نقف مع العلماء من أهل التفسير وقفة حوله لنتعرف على بعض أسراره فنقول وبالله التوفيق يقوم الإمام الرازي: وأما الطارق فهو كل ما آتاك ليلاً سواء كان كوكباً أو غيره فلا يكون الطارق

(١) سورة الطلاق: الآية رقم [١٢].
(٢) سورة آل عمران: الآية رقم [١٠٨].
(٣) سورة آل عمران: الآيات رقم [١٩٠، ١٩١].
(٤) روح المعاني: [٩٤/٣٠].
(٥) سورة الملك: الآية رقم [٥].

نهاراً، والدليل عليه قول المسلمين في دعائهم: نعوذ بالله من طوارق الليل وروي أنه عليه السلام: "**نهى عن أن يأتي الرجل أهله طروقاً**"(١) والعرب تستعمل الطروق في صفة الخيال لأن تلك الحالة إنما تحصل في الأكثر من الليل، ثم إنه تعالى لما قال (والطارق) كان هذا مما لا يستغنى سماعه عن معرفة المراد منه، فقال: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ**﴾ قال سفيان بن عيينة كل شئ في القرآن ما أدراك فقد أخبر الرسول به وكل شئ فيه ما يدريك لم يخبر به كقوله: ﴿**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ**﴾(٢) ثم قال (النجم الثاقب) أي هو طارق عظيم الشأن، رفيع القدر وهو النجم الذي يهتدي به في ظلمات البر والبحر ويوقف به على أوقات الأمطار، وههنا مسائل:

المسألة الأولى: إنما وصف النجم بكونه ثاقباً لوجوه (أحدها) أنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه كما قيل دري لأنه يدرؤه أي يدفعه، (**ثانيها**): أنه يطلع من المشرق نافذاً في الهواء كالشئ الذي يثقب الشئ، و(**ثالثها**):أنه الذي يرمي به الشيطان فيثقبه أي ينفذ فيه ويحرقه، و(**رابعها**): قال الفراء (النجم الثاقب) هو النجم المرتفع عن النجوم، والعرب تقول للطائر إذا لحق ببطن السماء ارتفاعاً قد ثقب.

المسألة الثانية: إنما وصف النجم بكونه طارقاً، لأنه يبدو بالليل، وقد عرفت أن ذلك يسمى طارقاً، أو لأنه يطرق الجني، أي يصكه.

المسألة الثالثة: اختلفوا في قوله (النجم الثاقب) قال بعضهم: أشير به إلى جماعة النجوم فقيل الطارق، كما قيل (إن الإنسان لفي خسر) وقال آخرون: أنه نجم بعينه، ثم قال ابن زيد: أنه الثريا، وقال الفراء: أنه زحل، لأنه يثقب بنوره سمك سبع سماوات، وقال آخرون: أنه الشهب التي يرجم بها الشياطين، لقوله تعالى(٣): ﴿**فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ**﴾(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح: باب لا يطرق أهله ليلاً: حديث رقم: (٥٢٤٣، ٥٢٤٤)، ومسلم في كتاب الإمارة: باب: كراهة الطروق: حديث رقم: (٧١٥).
(٢) سورة الشورى: الآية رقم [١٧].
(٣) سورة الصافات: من الآية رقم [١٠].
(٤) مفاتيح الغيب: المجلد السادس عشر: [٢٦/٣١، ٢٧].

ويقول الإمام الألوسي: (والطارق) وهو في الأصل اسم فاعل من الطرق بمعنى الضرب بوقع وشدة يسمع لها صوت ومنه المطرقة والطريق لأن السابلة تطرقها ثم صار في عرف اللغة اسماً لسالك الطريق لتصور أنه يطرقها بقدمه واشتهر فيه حتى صار حقيقة ثم اختص بالآتي ليلاً لأنه في الأكثر يجد الأبواب مغلقة فيطرقها ثم اتسع في كل ما يظهر بالليل كائناً ما كان حتى الصور الخيالية البادية فيه والعرب تصفها بالطروق كما في قوله[1]:

طرق الخيال ولا كليلة مدلج سدكا بارحلنا ولم يتعرج

والمراد به هنا عند الجمهور الكوكب البادي بالليل إما على أنه اسم جنس أو كوكب كعهود كما ستعلم إن شاء الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ**﴾ تنويه بشأنه إثر تفخيمه بالأقسام وتنبيه على رفعة قدره بحيث لا ينالها إدراك الخلق فلابد من تلقيها من الخلاق العليم فما الأولى مبتدأ وأدراك خبره وما الثانية خبر والطارق مبتدأ على ما اختاره بعض المحققين أي شئ أعلمك ما الطارق وقوله سبحانه وتعالى (النجم الثاقب) خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف وقع جواباً عن استفهام نشأ عما قبل كأنه قيل ما هو؟ فقيل: هو النجم إلخ، والثاقب في الأصل الخارق ثم صار بمعنى المضئ لتصور أنه يثقب الكلام وقد يخص بالنجوم والشهب لذلك وتصور أنها ينفذ ضوؤها في الأفلاك ونحوها وقال الفراء الثاقب المرتفع يقال ثقب الطائر أي ارتفع وعلا والمراد بالنجم الثاقب الجنس عند الحسن فإن لكل كوكب ضوءاً ثاقباً لا محالة وكذا كل كوكب مرتفع ولا يضر التفاوت في ذلك وذهب غير واحد إلى أن المراد به معهود فعن ابن عباس أنه الجدي وأخرج ابن جرير عن ابن زيد أنه الثريا وهو الذي تطلق العرب عليه اسم النجم وروى عنه أيضاً أنه زحل وهو أبعد السيارات وأرفعها وما يثقبه ضوؤه من الأفلاك أكثر فيما يزعم المنجمون المتقدمون وإنما قلنا أبعد السيارات لأن الجدي والثريا عندهم أبعد منه بكثير وكذا عند المحدثين وعن الفراء أنه القمر لأنه آية الليل، وأشد الكواكب ضوءاً فيه وهو زمان سلطان وأنت تعلم أن إطلاق النجم عليه ولو موصوفاً غير شائع وقيل هو النجم الذي يقال له كوكب الصبح

(١) سدكا بفتح فكسر أي مولعاً.

وعن علي كرم الله وجهه أنه نجم في السماء السابعة لا يسكنها غيره فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة فهو طارق حين ينزل وطارق حين يصعد، ولا يخفى أن المعروف أن الذي يسكن السماء السابعة أعني الفلك السابع وحده هو زحل فيكون ذلك قولاً بأن النجم الثاقب هو لكن لا يعرف له نزول ولا صعود بالمعنى المتبادر وأيضاً لا يعقل له نزول إلى حيث تكون النجوم أعنى الثوابت لأن المعروف عندهم أنها في الفلك الثامن ويجوز عقلاً أن يكون بعضها في أفلاك فوق ذلك بل نص المحدثون لما قام عندهم على تفاوتهم في الارتفاع ولم يشكُّوا في أن كثيراً منها أبعد من زحل بعداً عظيماً وإذا اعتبرت الظواهر وقلنا بأنها في السماء الدنيا وإن تفاوتت في الارتفاع فذلك أيضاً مما يأباه أن النجوم قد تأخذ أمكنتها من السماء وليس معها زحل وبالجملة ما يعكر على هذا الخبر كثير وكونه كرم الله تعالى وجهه أراد كوكباً آخر هذا شأنه لا يخفى حاله والذي يقتضيه الإنصاف وترك التعصب أن الخبر مكذوب على الأمير رضى الله تعالى وكرم وجهه.

وجوز على إرادة الجنس أن يراد به جنس الشهب التي يرجم بها وليس بذاك وما روى أن أبا طالب كان عند رسول الله صلى لله تعالى عليه وسلم فانحط نجم فامتلأ ماء ثم نورا ففزع أبو طالب فقال أي شئ هذا فقال عليه الصلاة والسلام هذا نجم رميى به وهو آية من آيات الله تعالى فعجب أبو طالب فنزلت لا يقتضي ذلك على ما لا يخفى.

وزعم ابن عطية أن المراد بالطارق جميع ما يطرق من الأمور والمخلوقات فيعم النجم الثاقب وغيره ويكون معنى وما أدراك ما الطارق حق الطارق بأن تكون آل في ما الطارق مثلها في أنت الرجل وما أدري ما الطارق علي هذا الرجل حتى ركب هذا الطريق الوعر في التفسير وفي إيراد ذلك عند الأقسام به بوصف مشترك بينه وبين غيره ثم الإشارة إلى أن ذلك الوصف غير كاشف عن كنه أمره وأن ذلك مما لا يبلغه أفكار الخلائق ثم تفسيره بالنجم الثاقب من تفخيم شأنه وإجلال محله ما لا يخفي على ذي نظر ثاقب ولإراده ذلك لم يقل ابتداء والنجم الثاقب مع أنه أخصر وأظهر ولله عز وجل أن يفخم شأن ما شاء من خلقه لما شاء.

ولا دلالة فيه هاهنا على شئ مما يزعمه المنجمون في أمر النجوم زحل وغيره من التأثير في سعادة أو شقاوة(١).

وما تجدر به الإشارة أن الأئمة البغوي، وابن عطية، والقرطبي، والبيضاوي ذكروا تفسيرات للأئمة من أهل التفسير تحدد مكان الطارق، وتعين اسمه كما ذكر الإمامان الفخر والألوسي كما سبق بيانه نقلاً عنهما.

ومما يجب التنويه إليه أن الأمامين المفسرين ابن كثير والشهيد سيد قطب رحمهما الله تعالى لم يرتضيا القول بتحديد اسم ومكان الطارق، بل ذكرا تفسيراً لصفته.

فيقول الإمام ابن كثير رحمه الله: قسم تبارك وتعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة ولهذا قال: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ**﴾؟ ثم فسره بقوله: ﴿**النَّجْمُ الثَّاقِبُ**﴾.

قال قتادة وغيره: إنما سمي النجم طارقاً لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح: (نهى أن يطرق الرجل أهله طارقاً أي يأتيهم بالليل)، وفي الحديث الآخر المشتمل على الدعاء: إلا طارق يطرق بخير يا رحمن وقوله: (الثاقب) قال ابن عباس: المضئ وقال السدى: يثقب الشياطين إذا أرسل عليها، وقال عكرمة هو مضئ ومحرق للشيطان(٢).

(والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق؟ النجم الثاقب إن كل نفس لما عليها حافظ) هذا القسم يتضمن مشهداً كونياً،وحقيقة إيمانية وهو يبدأ بذكر السماء والطارق ويثني بالاستفهام المعهود في التعبير القرآني: (وما أدراك ما الطارق؟)... وكأنه أمر وراء الإدراك والعلم. ثم يحدده ويبينه بشكله وصورته: (النجم الثاقب) الذي يثقب الظلام بشعاعه النفاذ وهذا الوصف ينطبق على جنس النجم. ولا سبيل إلى تحديد نجم بذاته من هذا النص، ولا ضرورة لهذا التحديد بل إن الإطلاق أولى. ليكون المعنى: والسماء ونجومها الثاقبة للظلام، النافذة من هذا الحجاب الذي يستر الأشياء، ويكون لهذه الإشارة إيحاؤها حول حقائق السورة وحول مشاهدها الأخرى(٣).

(١) روح المعاني: [٣٠/٩٤، ٩٥].
(٢) تفسير ابن كثير [٤/٤٣٥].
(٣) فى ظلال القران: [٨/٣٨٧٨].

وعلى هذين التفسيرين وغيرهما ممن لم يترض القول بتحديد الاسم وتعيين المكان للطارق تكون آل في قوله تعالى (النجم) للجنس. وأما العلماء من أهل التفسير الذين قد حددوا اسماً وعينوا مكاناً للطارق تكون آل فيه أي في النجم عندهم للعهد.

ج- التفسير العلمي للسماء والطارق في ضوء العلم الحديث:

يقول بروس بلفن: إن سماءنا ذات النجوم ما هي إلا واحدة على الأقل من ملايين من أمثالها من المجموعات الشمسية المنتشرة في الفضاء في جميع الأنحاء، وفي السماء تسعة آلاف نجم يمكن رؤيتها بالعين المجردة، وتشتمل مجموعتنا على مائة بليون من النجوم بعضها أصغر من شمسنا، وبعضها أكبر منها أضعافاً مضاعفة من وراء المجرة التي نحن فيها وعلى بعد أعظم مما يستطيع العقل البشري أن يتصوره مجرات أخرى وهي ليست بعيدة عنا فحسب، بل بعضها بعيداً أيضاً عن البعض الأخر أعظم البعد، وقد أصبح معروفاً على وجه التحقيق مائة ألف أو أكثر من هذه المجرات، وهناك خمسمائة ألف مجرة أخرى تحت المراقبة(١).

تعدد الشموس والأقمار حقيقة كونية أشار إليها القرآن الكريم بأسلوب معجز: رغم أن القرآن الكريم نزل منذ أربعة عشر قرناً وأن الإنسان لم يعرف في ذلك الوقت إلا شمساً واحدة وقمراً واحداً وقد أشارت الآيتان التاليتان في إعجاز لغوي بالغ إلى حقيقة تعدد الشموس والأقمار قال تعالى: ﴿**لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ**﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً، وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً**﴾(٢) ويتضح من الآية الأولى أن لفظ خلقهن أتى بضمير الجمع المؤنث بدلاً من ضمير المثنى أي بدلاً من لفظ خلقهما كما تقتضيه اللغة العربية ولو كان المعنى في الآية مقصوراً على شمسنا وقمرنا فقط وهذه إشارة واضحة أن بالكون شموساً وأقماراً أخرى كما أن أداة التعريف آل في الآية الكريمة صادقة الدلالة بوجهيها فهي للعهد أي للشمس والقمر المعروفين لنا وقت نزول القرآن بدلالة النهي عن السجود لهما، وهي أيضاً أداة التعريف للجنس أي لجميع الشموس، والأقمار بدليل

(١) مجلة المختار: عدد ديسمبر [١٩٤٣].
(٢) سورة نوح: الآية رقم [١٥، ١٦].

ضمير الجمع في لفظ خلقهن وبهذا فإن الآية تمثل إعجازاً مزدوجاً من الناحية اللغوية والعلمية.

فتأمل عظمة القرآن التي تعرض بمثل هذا الأسلوب لحقيقة كونية هامة لم يتم اكتشافها إلا في العصر الحديث، وأية سورة نوح تشير أيضاً إلى نفس الأمر ولا يحتاج في فهم هذا من الآية الكريمة إلا إلى اعتبار الـ في القمر للجنس. واحتمال ذلك موجود يدل عليه أو يشير إليه ضمير الجمع في (فيهن) وليس هذا ببعيد فالكلام كلام الله. ولعله سبحانه يلفت عباده بهذه القرينة إلى آية من آياته في الخلق بلفظة تحتمل وجهين: وجهاً معهوداً يدل على قمر الأرض حين تكون الـ للعهد. ووجهاً غير معهود ولا معروف ينبئ بحقيقة كونية مجهولة، ولو أن المفسرين انتبهوا إليه حين تكون الـ للجنس لسبقوا العلم إلى القول بتعدد الأقمار والشموس(١).

وأما بالنسبة للطارق فقد مال أحد العلماء التجريبيين المعاصرين، وهو أ. د. زغلول النجار إلى القول بأنه أي الطارق نجم خاص بعينه، واستشهد على هذا القول، بأن وكالة الفضاء الأمريكية ناسا قد قامت بالتسجيل على CD لهذا النجم، فسمعت له صوتاً يشبه الطرق القوي بسرعة تك، تك، تك. ولنترك الإذاعي الكبير أ/ أحمد فراج بعرض سؤاله في هذا الصدد على أ.د. زغلول النجار.

الأستاذ أحمد فراج:

سيادة الأستاذ الدكتور زغلول النجار، وما دمنا في السماء هل تسمح لي أن أسأل في موضوع شغلني وشغلني أكثر عندما كلمتنى عنه وهو ﴿**وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ، النَّجْمُ الثَّاقِبُ، إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ**﴾.

في الحقيقة كل قسم لابد أن نقف عنده؛ لأنه يبين أن كل آية إعجاز، ويتضح لنا إن كان هذا الإعجاز بيانياً أو تشريعياً أو لغوياً أو علمياً، حضرتك قلت شيئاً غريباً جداً لي، وأحب أن احتفل به معك. (الطارق) سجلت طرقات فعلاً في الكون. فاحك لنا القصة من الألف إلى الياء.

الدكتور زغلول النجار:

(١) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: د. عاطف قاسم: [ص ٨٥، ٨٦].

(والسماء والطارق قسم من الله – سبحانه وتعالى – والله غني عن القسم، سبق أن أشرنا إلى أن الآية إذا جاءت بصيغة القسم، فهذا يدل على أهمية الأمر المقسم به وأنه أمر عظيم، فالقسم بالسماء وارد؛ لأن السماء من أعظم صور خلق الله للكون. فالمسافة بين الشمس والأرض ١٥٠ مليون كم والمسافة بين الشمس وأبعد ا لكواكب خروجاً عنها ٦ آلاف مليون كم داخل المجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية عدد من الكواكب والكويكبات والأقمار والمذنبات والشهب والنيازك تدور حول الشمس، تخيل العلماء في بادئ الأمر أن هذا هو كل السماء أو كل الكون، ولكن بعد تطور علم الفلك، أدرك العلماء أن المجموعة ما هي إلا ذرة صغيرة في تجمع أكبر يعرف باسم المجرة، وهي التي تتبعها مجموعتنا الشمسية عبارة عن قرص مفلطح تعجز المسافات الأرضية عن التعبير عن أبعاده، فاتفق العلماء على اختيار السنة الضوئية كوحدة قياس لسطح الكون، والسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء بسرعته المعروفة ٣٠٠ ألف كم/ ثانية في سنة من سنواتنا وهو رقم مذهل.

إذا ضربنا ٣٠٠ ألف × ٦٠ دقيقة × ٦٠ ثانية يصبح في الساعة، في ٢٤ ساعة يصبح في اليوم × ٣٦٥.٢٥ ليصبح في السنة. ويبلغ ٩.٥ مليون مليون كم.

أقرب نجم إلينا خارج المجموعة الشمسية يبعد عنا ٤.٣ من السنين الضوئية المجرة التي تبعها يبلغ قطرها ١٠٠ ألف سنة ضوئية ويبلغ سمكها ١٠ آلاف من السنين الضوئية. وقد حصد العلماء في هذه المجرة إلى الآن أكثر من ٤٠٠ ألف مليون نجم كشمسنا، كل نجم له توابعه كما أن لشمسنا توابعها. فتخيل العلماء أن المجرة هي كل الكون، فإذا بعلم الفلك يثبت أنه في السماء يوجد من أمثال هذه المجرة على الأقل ٢٠٠ ألف مليون مجرة في الكون، بعضها أكبر من مجرتنا وبعضها أصغر ينتظمها عقد عظيم كل ما فيه يدور ويتحرك في مسافات محددة ثابتة وفي أفلاك محددة ثابتة، فالنجوم لا يصطدم أحدها بالآخر لتكون جزءاً من السماء الدنيا وهي جزء من الدنيا، فالقرآن يقول: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ**﴾(١)، فالنجوم هي مصابيح، وهي وسيلتنا للتعرف على أبعاد السماء الدنيا، وأما غير السماء الدنيا، من سماوات لا يعلمها إلا الله. هذا الركن من السماء الدنيا دائم الاتساع، بحيث أن الإنسان لا يستطيع أن يلحق

(١) سورة الملك: من الآية رقم [٥].

بأطرافه، وأنه كلما طور الإنسان من أجهزته وجد هذا الكون يتسع، فلا يستطيع الإنسان أن يدرك الجزء المدرك من الكون، الذي يشاهد لنا.

الأستاذ أحمد فراج:

أنا استمع، ولكني عاجز عن أن أتخيل كل هذا، يعني نحن يكفي أن نقول أرقاماً فلكية.

الدكتور زغلول النجار:

هذا الكلام تقوله إحدى أستاذات الفلك، وهي أستاذة أمريكية حيث تقول: إن هذا المجال إذا دخله الإنسان بعقله، إما أن يسجد لخالق هذا الكون، أو يفقد هذا العقل. أينشتين كتب كتاباً في آخر أيامه يقول فيه: (إن أعظم خاطرة يمكن أن تجول في ذهن الإنسان، هي ما تيراءى له حين يقف يتأمل في هذا الكون، وأن يستطيع أن يرى جمالاً ما بعده جمال وكمالاً ما بعده كمال ودقة ما بعدها دقة، ويقول إن هذا الموقف عندى هو موقف التعبد عند الخلائق) حينما نشر هذا الكلام، عقد له مؤتمر صحفي.

الأستاذ أحمد فراج:

﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾(١) فالعالم - طبيباً أو مهندساً أو فكلياً أو في أي تخصص - عندما يعبر عن كلمة مثل هذه الكلمات (سبحان الله والله أكبر) فرصيده في نفسه أضعاف أضعاف الإنسان البسيط.

الدكتور زغلول النجار:

فقال له صحفي يهودي: إني أعجب من الشخص الذي حبس الطاقة في معادلة أن يخشى الله. فقال له أخرس يا فلمنج، إني لست ملحداً إني أؤمن بالله. فهذا إيمان فطري بمجرد النظر في الكون، ولذلك يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾(٢)، فالقسم بالسماء قسم عظيم ويستحق فعلاً أن يقسم بها، ومن الأمر المبهر هو (الطارق) ما هو (الطارق) والقسم والخطاب هنا يأتي لرسول الله ﷺ، والجواب هنا (النجم الثاقب)، فقال المفسرون: هو كل نجم،

(١) سورة فاطر: من الآية رقم [٢٨].
(٢) سورة غافر: الآية رقم [٥٧].

واعتبروا أن النجم الذي يخترق أو يثقب ظلمة الليل هو هذا النجم الثاقب، ولكن هذه الآيات الثلاث تؤكد على أن الطارق هو نجم خاص بعينه، ليس لكل نجم، وإلا ما قال القرآن: ﴿**وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ، النَّجْمُ الثَّاقِبُ، إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ**﴾. منذ سنوات قليلة اكتشف العلماء أن النجوم تقوم بدورة حياة تبدأ من الدخان، هذا الدخان يبدأ في التكثف على ذاته فيبدأ من داخله عملية الاندماج النووي، بمعنى اتحاد ذرات الهيدروجين مع بعضها لتعطي عناصر ثقيلة بالتدريج، فيتحول النجم (الدخان) بالتدريج إلى عناصر، والدخان عبارة عن أيدروجين وفيه بعض الجسيمات الصلبة يبدأ الأيدروجين يتحد ليكَوِّن العناصر الأكثر وزناً، يمر في مرحلة حتى يصل إلى مرحلة ينكدر تماماً ﴿**وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ**﴾[1]، والنجم المنكدر تخبو جذوته، ويبدأ يقل ضوؤه ويبدأ بتكدس المادة بداخله.

وجد العملاء أن مرحلة من هذه المراحل تسمى (النجوم النيترونية) وهي نجوم لاحقة للنجم المنكدر، ونجم نيتروني أي تتكدس المادة ففيه، ولا يوجد موجب وسالب، وتكون كلها جسيمات متعادلة نيترونات، فتبدأ هذه النيترونات في إعطاء نبضات صارخة تشق صمت الكون وتصل إلى الأرض، حين استمع إليها العلماء سموها نبضات وشبهوها بنبضات القلب، سميت هذه النجوم بالبلسات Pulses (النوابض) هذه هي حالة خاصة من النجوم، تتكدس فيها المادة تكدساً شديداً قبل أن يطمس النجم بالكامل فيقول القرآن ﴿**فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ**﴾[2] وقبلها ﴿**وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ**﴾. ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**﴾[3] هذه الشمس لها ألسنة طويلة من اللهب تعد بمئات الآلاف من الكيلومترات حينما تخبو جذوة الشمس تفقد جزءاً من هذه الأذرع وتتكور تكوراً كاملاً. ﴿**وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ**﴾ حين تتحول المادة داخل النجم إلى مواد شبه صلبة يفقد النجم جذوته وضوءه فينكدر، ثم إذا كانت كتلته أكبر من ٤ أضعاف كتلة الشمس، تتكدس المادة أكثر فيختفي بذلك الضوء بالكامل ولا يرى النجم، فهذا الذي سماه العلماء بالثقب الأسود، وسماه القرآن النجم الخانس الطامس، وأقسم به ربنا تبارك وتعالى ﴿**فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ**﴾[4].

(١) سورة التكوير: الآية رقم [٢].
(٢) سورة المرسلات: الآية رقم [٨].
(٣) سورة التكوير: الآية رقم [١].
(٤) سورة التكوير، الآية رقم [١٥].

الأستاذ أحمد فراج:

النجم هو حالة غازية يتحول إلى مادة صلبة بالتدريج حتى يصل إلى الحالة النيترونية.

الدكتور زغلول النجار:

متى يصل إلى حالة نيترونية؟ النجم هذا إذا تحول لبه إلى حديد بالكامل ينفجر، إذا كبر حجمه تتكدس المادة الأولية على ذاتها وتتحول في النجم إلى مادة متعادلة الشحنة، نيوترون. هذا النجم النيتروني يطلق نبضات كنبضات القلب، حينما سمعت بواسطة التلسكوب الراديـاوي (ويستطيع العلماء أن يدركوا تلك الأجسام عن طريق الأصوات المنطلقة منها)، فهذه النبضات تشبه تماماً الطرق على باب. ولذلك سماها القرآن (بالطارق) وهذا أمر مبهر للغاية: (سماع أصوات للنجم مسجلة على CD وهي وثيقة علمية معترف بها) سماع صوتين (صوت يشبه نبضات القلب) و(صوت يشبه الطرق بسرعة على الباب)، فالطارق على الباب حينما يكون قريباً منا، وكلما يبتعد يقل فيشبه نبضات القلب. طرق يتسارع، كالطرق على الباب. سجل في ناسا (وكالة الفضاء الأمريكية)[1].

ومما سبق يتبين لنا انسجام رأي المفسرين القائلين بأن الطارق نجم معهود مع رأي علماء الفضاء، ويلتقي الفريقيان حول نقطة ضوء واحدة.

د – أقوال العلماء في جواب القسم ومعناه:

جواب القسم هو قوله تعالى: ﴿**إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ**﴾ ولم تختلف كلمة أئمة التفسير في ذلك. وما بينهما اعتراض جئ به لتأكيد فخامة المقسم به المستتبع لتأكيد مضمون الجملة المقسم عليها رأى أخر في جواب القسم: قيل بأن جوابه قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ**﴾.

(١) من آيات الإعجاز العملي في القرآن الكريم: د. زغلول النجار: [٢/٥٢-٥٧]، بتقديم الإذاعي الكبير الأستاذ/ أحمد فراج.

وما في البيان اعتراض ذكر هذا الرأي[١] الإمام القرطبي والإمام الألوسى رحمه الله وعلق عليه قائلاً: وهو كما ترى[٢] ولعل عبارة الإمام الألوسى رحمه الله تشعر بتضعيف هذا الرأي.

الرأي الراجح في هذه المسألة هو الرأي الثاني القائل بأن جواب القسم هو قوله تعالى ﴿**إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ**﴾ وذلك لما يأتي:

لأن المنكرين إنما أنكروا وقوع البعث والرجعة والإعادة للإنسان فلا جرم أقسم الله سبحانه وتعالى بالسماء وبالطارق أنه قادر على بعث هذا الإنسان الذي حفظه وحفظ عليه جميع أعماله وخلقه من مائين لرجل وامرأة ولأن قضية حفظ الإنسان لم تشغل حيزاً كبيراً من الفكر، ولم تكن محل الصراع والجدل مثلما كانت قضية البعث الي لا تزال تذل فيها أقدام، وتضل فيها أوهام، ولا يعترض على ذلك كما لا يضر هذا الرأي طول الاعتراض الذي بين المقسم به والمقسم عليه الذي يسمى جواب القسم إذا علم أن هذا الاعتراض كله إنما هو بمثابة إقامة الدليل وبمثابة التمهيد والتدليل ونصب الحجة لجواب القسم قوله تعالى ﴿**إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ**﴾ الواضح من كلمة كل أنها من صيغ العموم فتقيد أن جميع النفوس عليها من الله حافظ يحفظها ويحفظ جميع أعمالها، فالمحفوظ إذا هو الإنسان المكون من جسم ونفس وغير ذلك، وعبر عنه بنفس لأنها سبب تكوينه، وينبوع بقائه ولا حياة له إلا بها.

من هو الحافظ؟ لقد ذكر السادة المفسرون أقوالاً مختلفة حوله ولكنها لا تخرج عن ثلاثة:

الأول: منهم من قال بأنه الله سبحانه وتعالى، ومعنى حافظ أي مهيمن ورقيب كما في قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً**﴾[٣].

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب

الثاني: هو من يحفظ عملها من الملائكة عليه السلام ويحصي عليها ما تكسب من خير أو شر كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَاماً كَاتِبِينَ،**

(١) الجامع لأحكام القرآن [٣/٢٠].
(٢) روح المعاني [٩٤/٣٠].
(٣) سورة الأحزاب: من الآية [٥٢].

يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾(١). وذلك مروي عن ابن سيرين وقتادة وغيرهما وقيل: من وكل على حفظها والدفاع عنها من الملائكة: ﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**﴾(٢).

الثالث: هو العقل الذي يرشد المرء إلى المنافع ويكفه عن المضار(٣).

واللفظ العظيم "الحافظ" يستوعب كل هذه الآراء التي وإن بدت متغايرة ومختلفة يقول الإمام القرطبي العقل وغيره وسائط، والحافظ هو الله عز وجل ﴿**فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً**﴾(٤)، وقال: ﴿**قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ**﴾(٥) وما كان مثله، وهنا سؤال يقفز إلى الذهن، وهو ما الذي يحفظه هذا الحافظ؟ أجاب عليه السادة المفسرون بوجوه أربعة:

أحدها: أن هؤلاء الحفظة يكتبون عليه أعماله دقيقها وجليها حتى تخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا.

ثانيها: ﴿**إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ**﴾ يحفظ عملها ورزقها وأجلها فإذا استوفى الإنسان رزقه وأجله قبض إلى ربه، وحاصله يرجع إلى وعيد الكفار، وتسلية النبي الكريم صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم كقوله: ﴿**لاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَداً**﴾(٦)، ثم ينصرفون عن قريب إلى الآخرة فيجازون بما يستحقون.

ثالثها: ﴿**إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ**﴾ يحفظها من المعطب والمهالك فلا يصيبها إلا ما قدر الله عليها.

رابعها: قال الفراء والكلبي ﴿**إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ**﴾ يحفظها حتى يسلمها للمقابر(٧).

---

(١) سورة الانفطار: الآيات رقم [١٠-١٢].
(٢) سورة الرعد: من الآية رقم [١١].
(٣) يراجع تفسير الجامع لأحكام القرآن: [٢٠/ ٣، ٤]، روح المعاني [٩٦/٣٠] وبتصرف.
(٤) سورة يوسف: من الآية رقم [٦٤].
(٥) سورة الأنبياء: من الآية رقم [٤٢].
(٦) الجامع لأحكام القرآن [٢٠/٤].
(٧) التفسير الكبير [المجلد السادس عشر: ١٢٨/٣١] بتصرف.

وللإمام الشهيد سيد قطب كلام طيبه حول قوله تعالى: ﴿**إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ**﴾ فيقول: وفي التعبير بصيغته هذه معنى التوكيد الشديد. ما من نفس إلا عليها حافظ يراقبها، ويحصي عليها ويحفظ عنها، وهو موكل بها بأمر الله. ويعين النفس لأنها مستودع الأسرار والأفكار، وهي التي يناط بها العمل والجزاء. ليست هنالك فوضى إذاً ولا هيصة! والناس ليسوا مطلقين في الأرض هكذا بلا حارس. ولا مهملين في شعابها بلا حافظ، ولا يتركون يفعلون كيف شاءوا بلا رقيب، وإنما هو الإحصاء الدقيق المباشر والحساب المبني على هذا الإحصاء الدقيق المباشر. ويلقي النص إيماءه الرهيب حيث تحس النفس أنها ليست أبداً فى خلوة – وأن خلت هناك الحافظ الرقيب عليها حين تنفرد من كل رقيب، وتختفي عن كل عين، وتأمن كل طارق. هنالك الحافظ الذي يشق كل غطاء وينفذ إلى كل مستور، كما يطرق النجم الثاقب حجاب الليل الساتر وصنعة الله واحدة متناسقة في الأنفس والأفاق. ويخلص من هذه اللمسة التى تصل النفس بالكون إلى لمسة أخرى تؤكد حقيقة التقدير والتدبير التى أقسم عليها بالسماء والطارق.

فهذه نشأة الإنسان الأولى تدل على هذه الحقيقة، وتوحي بأن الإنسان ليس متروكاً سدى ولا مهملاً ضياعاً[1].

ما ترشد إليه الآيات:

أولاً: التفكر في بديع صنع السماء، وعجيب الفطرة في الطارق واستحقاق القسم بهما.

ثانياً: إكرام الله لجميع جنس الإنسان بحفظه حتى لا تجتاله الشياطين.

ثالثاً: الضخامة والسعة اللانهائية للسماء، وأنها بلا حدود ﴿**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**﴾[2].

رابعاً: الإيمان بالخالق العظيم وأنه قادر على كل شئ.

(١) في ظلال القرآن [٣٨٧٨/٨].
(٢) سورة الذاريات: الآية رقم [٤٧].

التفكر في المبدأ

قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾.

المعاني اللغوية للألفاظ المباركة:

فلينظر: الفاء مفيدة مفاد فاء الفصيحة.

النظر: والنظر بفتحتين تأمل الشئ بالعين(١).

وجاء في القاموس: والنظر محركة: الفكر في الشئ تقدره وتقيسه(٢).

الإنسان: الإنس بكسر الهمزة، الناس خلاف الجن والإنس بفتحتين لغة في الإنس قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾(٣).

والإنسيّ: واحد الإنس قال تعالى: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَوْمَ إِنسِياً﴾(٤) أي واحد من الإنس.

والأَنَاسِيُ: بتشديد الياء وبتخفيفها جمع إنسي ويجمع على أناسي كصيرفي وصيارفة وصيدلي وصيادلة، قال تعالى: ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾(٥) وقرئ بالتخفيف وأناس.

إنسان: يطلق على الذكر وعلى الأنثى من بني آدم قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾(٦) أي كل رجل وكل امرأة وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾(٧)، قيل: هو آدم أبو البشر عليه السلام، وقيل كل إنسان إلى آخر الدهر، فغذاؤنا في جميع أطوار الحياة من الأرض(٨).

---

(١) مختار الصحاح [ص ٦٦٦].
(٢) القاموس المحيط [٦٧١].
(٣) سورة الرحمن: الآية رقم [٣٩].
(٤) سورة مريم: من الآية رقم [٢٦].
(٥) سورة الفرقان: من الآية رقم [٤٩].
(٦) سورة الإسراء: من الآية رقم [١٣].
(٧) سورة المؤمنون: الآية رقم [١٢].
(٨) القاموس القويم، [٣٧/١، ٣٨]

من: من قوله "مم خلق" ابتدائية متعلقة بـ "خلق" والمعنى فليتفكر الإنسان في جواب ما شئ خلق منه؟ فقدم المتعلق على عامله تبعاً لتقديم ما اتصلت به من (من) اسم الاستفهام.

ما: استفهامية علقت فعل النظر العقلي على العمل. والاستفهام مستعمل في الإيقاظ والتنبيه إلى ما يجب عمله كقوله: "من أي شئ خلقه" فالاستفهام هنا مجاز مرسل مركب، وحذف ألف "ما" الاستفهامية على طريقة وقوعها مجرورة، ولكون الاستفهام غير حقيقي أجاب عنه المتكلم بالاستفهام على طريقة قوله تعالى[1]: ﴿**عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ**﴾[2].

خلق: خلق الشئ يخلقه من باب نصر – خلقاً: أوجده وأبدعه على غير مثال سابق ولا يكون الخلق إلا من الله سبحانه وتعالى، فالله وحده هو الخالق، وإذا أسند إلى غيره فهو على المجاز لا على الحقيقة فقوله تعالى على لسان المسيح عليه السلام: ﴿**أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ**﴾[3] ليس خلقاً حقيقياً، وإنما المعنى: أصنع وأصور وأشكل من الطين هيئة الطير، والله وحده هو الذي يتمم الخلق، ويوجد فيه الحياة، ولا أستطيع أن أفعل ذلك إلا بإذن الله وحده. والخلق يستعمل بمعنى المخلوق كقوله سبحانه وتعالى: ﴿**هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ**﴾[4] أي هذا الكون كله من مخلوقات الله، أو هذا إبداع الله على أنه مصدر وبمعنى المخلوق في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ**﴾[5] أي مخلوقاته بتشويهها وتغيير هيئتها، وقطع آذانها.

والخالق الموجود من العدم، وهو من أسماء الله الحسنى، والخلاق ...

وخلقه: بالتشديد سواه وشكله على هيئة كائن حي، قال سبحانه و تعالى: ﴿**ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ**﴾[6] بصيغة اسم المفعول من الرباعي المضعف، أي مشكلة ومصورة على هيئة طفل وغير مشكلة أي غير تامة التصوير[7].

من: من حرف جر أصلي ويفيد المعاني التالية:

---

(١) سورة النبأ: الآية رقم [١].
(٢) التحرير والتنزير [٣٠/٢٦١].
(٣) سورة آل عمران: من الآية رقم [٤٩].
(٤) سورة لقمان: من الآية رقم [١١].
(٥) سورة النساء: من الآية رقم [١١٩].
(٦) سورة الحج: من الآية رقم [٥].
(٧) القاموس القويم: [١/٢٠٧، ٢٠٦] بتصرف.

الابتداء: مثل قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾(١).

التبعيض: مثل قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(٢) وكقوله سبحانه وتعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾(٣).

لبيان الجنس: مثل قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾(٤)، ومثله ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ مِنْ آيَةٍ﴾(٥).

للتعليل: مثل قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً﴾(٦).

للفصل والتمييز: وهي الداخلة على ثاني المتناقضين مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ﴾ (٧) ومثله: ﴿حَتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾(٨).

للبدل: كقوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾(٩) أي بدل الآخرة، وقوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾(١٠) أي بدلكم.

وبمعنى عن: مثل قوله تعالى: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾(١١) أي عن هذا.

وبمعنى على: مثل قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾(١٢) أي على القوم.

وبمعنى في: مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ﴾(١٣) أي في يوم الجمعة.

وبمعنى الباء: مثل قوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾(١٤).

وتأتي من حرف جر زائد لتفيد التوكيد والعموم، وبعضهم يشترط لذلك شروط ثلاثة:

* أن يسبقها نفي أو نهي أو استفهام بهل.

---

(١) سورة الإسراء: من الآية رقم [١].
(٢) سورة آل عمران: من الآية رقم [٩٢].
(٣) سورة الطارق: الآية رقم [٦].
(٤) سورة فاطر: من الآية رقم [٢].
(٥) سورة الأعراف: من الآية رقم [١٣٢].
(٦) سورة نوح: من الآية رقم [٢٥].
(٧) سورة البقرة: من الآية رقم [٢٢٠].
(٨) سورة آل عمران: من الآية [١٧٩].
(٩) سورة التوبة: من الآية رقم [٣٨].
(١٠) سورة الزخرف: الآية رقم [٦٠].
(١١) سورة الأنبياء: من الآية رقم [٩٧].
(١٢) سورة الأنبياء: من الآية رقم [٧٧].
(١٣) سورة الجمعة: من الآية رقم [٩].
(١٤) سورة الشورى: من الآية رقم [٤٥].

* أن يكون مجرورها نكرة.
* وأن يكون في موقع فاعل أو مفعول به أو مبتدأ، مثل: ﴿**وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا**﴾(١) في موقع الفاعل، ومثل: ﴿**مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ**﴾(٢) في في موقع المفعول به، ومثل: ﴿**فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ**﴾(٣) في موقع المفعول به، ومثل: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ**﴾(٤) ولم يشترط الأخفش في "من" الزائدة الشرطين الأولين: وهو سبقها بنفي أو شبهه، وأن يكون المجرور بها نكرة واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ**﴾(٥) فليس في الآية الآية نفي ولا نهي ولا استفهام والمجرور بها معرفة لإضافته إلى معرفة وهو في موقع الفاعل، ومثله قوله تعالى: ﴿**يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ**﴾(٦) في موقع المفعول به وقوله ﴿**وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ**﴾(٧) في موقع المفعول به، وعلى هذا يجوز زيادة "من" في الإيجاب وأن يكون المجرور بها نكرة أو معرفة وهو الأرجح(٨).

ماء: الماء معروف والهمزة فيه مبدلة من الهاء في موضع اللام.
وأصله مَوَهٌ بالتحريك لأن جمعه أمواه في القلة، و(مياه) في الكثرة مثل جمل وأجمال وجمال، والذاهب منه الهاء لأن تصغيره مُوَيْهٌ(٩). والماء يطلق مجازا على المني الذي يتكون منه الجنين.

دافق: خارج بقوة وسرعة والأشهر أنه يقال على نطفة الرجل. وصيغة دافق اسم فاعل من دفق بمعنى مفعول.

وأطنب في وصف هذا الماء الدافق لإدماج التعليم والعبرة بدقائق التكوين ليستيقظ الجاهل الكافر، ويزداد المؤمن علماً ويقينا. ووصف أنه يجر من "بين الصلب والترائب" لأن الناس لا يتفطنون لذلك.

---

(١) سورة الأنعام: من الآية رقم [٥٩].
(٢، ٣) سورة الملك: من الآية رقم [٣].
(٤) سورة المؤمنون: من الآية رقم [٩١].
(٥) سورة الأنعام: من الآية رقم [٣٤].
(٦) سورة إبراهيم: من الآية رقم [١٠].
(٧) سورة البقرة: من الآية رقم [٢٧١].
(٨) يراجع القاموس القويم للقرآن الكريم [٢/٢٣٧-٢٣٩] بتصرف.
(٩) مختار الصحاح [ص ٦٤٠].

يخرج: الخروج مستعمل فى ابتداء التنقل من مكان إلى مكان ولو بدون بروز فإن بروز هذا الماء لا يكون من بين الصلب والترائب[١].

من: ابتدائية

بين: بين المتوسط بين الشيئين[٢].
وفي المصباح: بين ظرف مبهم لا يتبين معناه إلا بإضافته إلى اثنين فصاعدا أو ما يقوم مقام ذلك كقوله تعالى: ﴿**عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ**﴾[٣]. والمشهور في العطف بعدها أن يكون بالواو بالواو لأنه لمطلق الجمع نحو المال بين زيد وعمر، وأجاز بعضهم بالفاء[٤].

الصلب: عظم الظهر، وفيه معنى الشدة والقوة، وجمعه أصلاب[٥].

الترائب: عظام الصدر، جمع تريبة. ويقال تريب. ومحرر أقوال اللغويين فيها أنها عظام الصدر التي بين الترقوتين والثديين ووسموه بأنه موقع القلادة من المرأة. والترائب تضاف إلى الرجل وإلى المرأة، ولكن أكثر وقوعها في كلامهم في أوصاف النساء لعدم احتياجهم إلى وصفها في الرجال[٦].

فقه الآيات المباركات:

ويشتمل بمشيئة الله تعالى على النقاط التالية:

أ- تعليق أئمة التفسير على الآيات المباركات: ﴿**فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ**﴾.

ب- التفسير العلمي حول هذه الآيات في ضوء العلم الحديث.

ما ترشد إليه الآيات المباركات.

أ- تعليق أئمة التفسير على الآيات المباركات: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾.

(١) التحرير والتنوير: [٢٦٢/٣٠] بتصرف.
(٢) المعجم الوجيز: [ص ٧٠].
(٣) سورة البقرة: من الآية رقم [٦٨].
(٤) المصباح المنير [ص ٢٨] بتصرف.
(٥) القاموس القويم: [٣٨٠/١].
(٦) التحرير التنوير: [٢٦٢/٣٠، ٢٦٣].

إذا كانت الفاء واقعة موقع فاء الفصيحة، فهي بالتالي أفصحت عن شرط مقدر، لأنها قامت بعملها، والشرط المقدر هو إذا كان الأمر كما ترى في السماء، والطارق، وما يقوم على حفظك، فتأمل وتفكر وتدبر في بداية خلقك لترى العجب العجاب؛ وليس الأمر بالنظر لمجرد النظر، فلا يعقل أن يكون الأمر وارداً على النظر المجرد من غير إعمال الفكر وإحكام العقل؛ قال الله تعالى: ﴿**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ**﴾(١) فالقرآن الكريم كتاب معجز وقد استخدم أسلوبين دقيقين فتراه في سورة الطارق يستخدم أسلوب الأمر (فلينظر) وفي سورة الذاريات يستخدم أسلوب المضارع الذي يدل على التجدد (تبصرون) وهو مسبوق بهمزة الاستفهام الإنكاري (أفلا تبصرون)، وفي ذلك ما يدل على أن الأمر بالنظر أنما هو النظر العاقل المتدبر والمتفكر والمتأمل والمتجدد بما تقع عليه عينه من مناظير تكشف له الجديد كل يوم في عالم الأجنة والهندسة الوراثية، والخريطة الجينية، والأحماض النووية، وغيرها من علوم حديثة لخدمة هذا الإنسان وراحته.

والسادة المفسرون ربما نظروا قديماً في الأمر الصادر من الله سبحانه وتعالى ﴿**فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ**﴾ على أنه التفكر وهذا صحيح، ولكننا ننظر إليه اليوم على أنه التفكر، والنظر إليه من خلال المناظير الحديثة التي استحدثت في خلال نهاية القرن الماضي، والأمر في قوله تعالى: ﴿**فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ**﴾ يفيد الوجوب فهو فرض كفاية إذا فعله البعض من العلماء المتخصصين في علوم الأجنة سقط الحرج والإثم عن الباقين وإذا لم يفعله الجميع أثموا لأنهم خالفوا أمر الله بهدمهم لقاعدة عظيمة من قواعد العلم التجريبي، وهو النظر لأصل الخلق الإنساني، والتي دعا إليها رب العالمين في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿**فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾(٢) ومعلوم أن علوم الشريعة إنما هي جزز من التفقه في الدين، ويشاطرها أجزاء أخرى مثل علوم الفلك والبحار والأرض والأجنة والتشريح والصيدلة إلى آخر العلوم الحديثة الأخرى، فكلها علوم تندرج تحت قوله (ليتفقهوا في الدين)، وحث الله سبحانه على تحصيلها والإفادة منها قائلاً: (وقل رب زدني علما).

(١) سورة الذاريات: الآية رقم [٢١].
(٢) سورة التوبة: من الآية رقم [١٢٢].

من الإمام ابن جرير إلى الإمام محمد عبده:

يقول الإمام ابن جرير في تفسيره لقوله تعالى: (فلينظر الإنسان): المكذب بالبعث (مم خلق) (خلق من ماء دافق) مدفوق وهو مما أخرجه العرب بلفظ فاعل بمعنى مفعول. (يخرج من بين الصلب) صلب الرجل (والترائب) ترائب المراة و"الترائب" ما فوق الثديين[١].

ويقول الإمام البغوي: (فلينظر الإنسان مم خلق) أي من أي شئ خلقه ربه أي فلينظر نظر المتفكر. ثم بين فقال: (خلق من ماء دافق) مدفوق أي مصبوب في الرحم وهو المني، فاعل بمعنى مفعول كقوله تعالى: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[٢] أي مرضية، والدفق الصب وأراد ماء الرجل وماء المرأة لأن الولد مخلوق منهما، وجعله واحداً لامتزاجهما، (يخرج من بين الصلب والترائب) يعني صلب الرجل وترائب المرأة و"الترائب" جمع التريبة، وهي عظام الصدر والنحر، قال ابن عباس: هي موقع القلادة من الصدر وروي الوالبي عنه: بين ثديي المرأة، وقال قتادة: النحر. وقال ابن زيد: الصدر[٣].

ويقول الإمام ابن عطية: وقوله تعالى (فلينظر الإنسان مم خلق) توقيف لمنكري البعث على أصل الخلق، أي أن البعث جائز ممكن، ثم بادر اللفظ إلى الجواب اقتضاباً وإسراعاً إلى إقامة الحجة إذ لا جواب لأحد إلا هذا. (دافق) قال: هو بمعني مدفوق. وقال الخليل وسيبويه: هو على النسب أي ذي دفق، والدفق: دفق الماء بعض إلى بعضه: تدفق الوادي والسيل، إذا جاء يركب بعضه بعضا، ويصح أن يكون الماء دافقا لأن بعضه يدفع بعضا، فمنه (دافق) ومنه مدفوق. وقوله تعالى: (يخرج من بين الصلب والترائب) قال قتادة والحسن وغيره: معناه من بين صلب كل واحد من الرجل والمرأة وترائبه، وقال سفيان وقتادة أيضاً: من بين صلب الرجل وترائب المرأة، والضمير في يخرج يحتمل أن يكون للإنسان، ويحتمل أن يكون للماء، وقرأ الجمهور: الصلب وقرأ أهل مكة وعيسى: (الصلب بضم اللام على الجميع، والتريبة من الإنسان: ما بين الترقوة إلى الثدي، وقال أبو عبيدة معلق الحلي على الصدر وجميع ذلك ترائب.

(١) المصحف المفسر [ص ٥٩١].
(٢) سورة الحاقة: من الآية رقم [٢١].
(٣) معالم التنزيل [٣٩٤/٨]

وقال امرؤ القيس (الطويل): ترائبها مثقولة كالسجنجل فجمع التريبة وما حولها فجعل ذلك ترائب. وقال مكي عن ابن عباس: إن الترب أطراف المرء ورجلاه ويداه وعيناه. وقال معمر: الترائب جمع تريبة وهي عصارة القلب، ومنها يكون الولد، وفي هذه الأقوال تحكم على اللغة. وقال ابن عباس: (الترائب موضع القلادة، وقال أيضاً: هي ما بين ثدي المرأة وقال ابن جرير: هي أضلاع الرجل التي أسفل الصلب. وقال مجاهد: هي الصدر وقال هي: التراقي. وقيل: هي ما بين المنكبين والصدر[1].

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله تعالى (فلينظر الإنسان مم خلق)؟ تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد لأن من قدر على البداءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى كما قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**﴾[2]. وقوله تعالى: (خلق من ماء دافق) يعني المني يخرج دافقاً من الرجل ومن المرأة فيتولد منهما الولد بإذن الله عز وجل ولهذا قال سبحانه: (يخرج من بين الصلب والترائب) يعني صلب الرجل وترائب المرأة وهو صدرها. وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس: (يخرج من بين الصلب والترائب): يعني صلب الرجل وترائب المرأة أصفر رقيق لا يكون الولد إلا منهما، وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدي وغيرهم. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة عن مسعر سمعت الحاكم ذكر عن ابن عباس (يخرج من بين الصلب والترائب) قال: هذه الترائب ووضع يده على صدره، وقال الضحاك وعطية عن ابن عباس: تريبة المرأة موضع القلادة، وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير، وقال على ابن أبي طلحة عن ابن عباس: الترائب بين ثدييها. وعن مجاهد: الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر وعنه أيضاً الترائب أسفل من التراقي. وقال سفيان الثوري: فوق الثديين. وعن سعيد بن جبير: الترائب أربعة أضلاع من هذا الجانب الأسفل. وعن الضحاك: الترائب بين الثديين والرجلين والعينين. وعن الليث بن سعد عن معمر بن أبي جبة المدني أنه بلغة في قول الله عز وجل: (يخرج من بين الصلب والترائب) قال: هو عصارة القلب من هنا يكون الولد. قال قتادة: (يخرج من بين الصلب والترائب) قال: من بين صلبه ونحره[3].

(١) المحرر الوجيز [٥/٤٦٥].
(٢) سورة الروم: من الآية رقم [٢٧].
(٣) تفسير الإمام بن كثير [٤/٤٣٥].

ويقول الإمام أبي السعود رحمه الله: (فلينظر الإنسان مم خلق) للتنبيه علىأن ما بين من أن كل نفس عليها حافظ يحصي عليها كل ما يصدر عنها من قول أو فعل مستوجب على الإنسان أن يتفكر في مبدأ فطرته حق التفكر حتى يتضح له أن من قدر علي إنشائه من مواد لم تشم رائحة الحياة قط فهو قادر على إعادته، بل أقدر على قياس العقل فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ما ينفعه يومئذ ويجديه، ولا يملي على حافظه ما يرديه. وقوله تعالى: (خلق من ماء دافق) استئناف واقع جواباً عن استفهام مقدر كأنه قيل مم خلق؟ فقيل: خلق من ماء ذي دفق وهو صب فيه دفع وسيلان بسرعة والمراد به الممتزج من الماء في الرحم كما ينبئ عنه قوله: (يخرج من بين الصلب والترائب) أي: صلب الرجل وترائب المرأة، وهي عظام صدرها، قالوا إن النطفة تتولد من فضل الهضم الرابع، وتنفصل عن جميع الأعضاء حتى تستعد لأن يتولد منها مثل تلك الأعضاء، ومقرها عروق ملتف بعضها بالعض عن البيضتين، فالدماغ أعظم الأعضاء معونة في توليدها، ولذلك تشبه! ويورث الإفراط في الجماع الضعف فيه، وله خليفة هي النخاع، وهو في الصلب، وشعب كثيرة نازلة إلى الترائب، وهما أقرب إلى أوعية المني فلذلك خصا بالذكر. وقرئ الصلب بفتحتين، والصلب بضمتين وفيه لغة رابعة وهي صالب[1].

ويقول الإمام محمد عبده رحمه الله: ويجوز أن يكون قوله تعالى: (فلينظر الإنسان مم خلق) من قبيل التفريع على ما ثبت في القضية الأولى، كأنه يقول: فإذا عرفت أن كل نفس عليها رقيب، من الواجب على الإنسان أن لا يهمل نفسه، وأن يتفكر في خلقه، وكيف كان ابتداء نشوئه ليصل بذلك إلى أن الذي أنشأه أول مرة قادر على أن يعيده، فيأخذ نفسه بصالح الأعمال والأخلاق، ويعدل بها عن سبيل الشر، فإن عين الرقيب لا تغفل عنها في حال من الأحوال و(الصلب): هو كل عظم من الظهر فيه فقار، ويعبر عنه في كلام العامة بسلسلة الظهر وقد يطلق بمعنى الظهر نفسه إطلاقاً لاسم الجزء على الكل. و(الترائب) موضع القلادة من الصدر، وكني الصلب عن الرجل وبالترائب عن المرأة، أي أن ذلك الماء الدافق إنما يكون مادة لخلق الإنسان إذا خرج من بين الرجل والمرأة، ووقع في المحل الذي جرت عادة الله سبحانه وتعالى أن يخلقه فيه

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم [١٤١/٩].

وهو رحم المرأة. فقوله (يخرج من بين الصلب والترائب) وصف لابد من ذكره لبيان أن الإنسان إنما خلق من الماء الدافق المستوفي شرائط صحة الخلق منه[1].

ب- التفسير العلمي حول هذه الآيات في ضوء العلم الحديث:

وصف مراحل الخلق البشري في القرآن:

يثير دهشة علماء الأجنة في الغرب.. يحتوي القرآن الكريم بين صفحاته كل تفاصيل مراحل الخلق البشري بينما كان الجهل يبسط ظلاله على عقول البشرية جمعاء، وتعبر كلماته الصادقة أفضل تعبير عن الحقيقة العلمية بينما كان الناس يتخبطون بين مفاهيم ونظريات لا علاقة لها بالحقيقة ولا نصيب لها من الصحة، ومما يثير الخضوع أن المراحل الصحيحة موجودة متكاملة بألفاظ وعبارات وصفية دقيقة منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، ولم يتمكن العلم الحديث من إيجاد بديل لها أو على الأقل معادل لها.

فقد نص القرآن بكلمات صريحة واضحة أن خلق البشر يتم على مراحل من خلال أطوار متتابعة متلاحقة، واستخدم القرآن في عرضه لمراحل الخلق مصطلحات علمية دقيقة، لم يقف العالم على عتبة المعرفة بها إلا منذ مائة عام أو أكثر قليلاً.

وفيما عدا علماء المسلمين، فإن كل هذه الحقائق لم تكن معروفة لدى علماء البشر حتى منتصف القرن الماضي، فمنهم من كان يعتنق النظرة الإغريقية بأن الجنين يتخلق من دماء الحيض، وعندما اخترع الميكروسكوب في القرن السابع عشر، واكتشف الحيوان المنوي، كان اعتقاد العلماء أن كل خلية منوية تحمل كائناً بشرياً كامل الخلق دقيق الحجم، وهكذا اتجهوا إلى تجاهل الإسهام الوراثي للأنثى في تخليق الجنين، ثم اكتشفت البويضة في القرن الثامن عشر، فاتجه العلماء إلى الاعتقاد بوجود كائن بشري متكامل التخليق دقيق الحجم فيها وهكذا قصرت أفكارهم عن دور الذكر في التناسل، إجمالاً نقول إن محصلة هذه المعتقدات والنظريات الخاطئة كان الاعتقاد بأن الحمل منذ بدايته يحتوي على كائن بشري متكامل الخلق.

أما القرن الكريم فقد عرض لعملية الخلق من خلال أطوار ومراحل متتالية، منها السريع ومنها البطئ، منذ البداية حتى النهاية، (مثل: سلالة من ماء مهين – نطفة –

(١) تفسير القرآن الكريم جزء عم للإمام محمد عبده [ص ٧٣].

علقة – مضغة)، وبتسميات تنطوي على تحديد دقيق للخصائص والوظائف الأساسية مثل (وصف الرحم) بأنه "قرار مكين" بل أن المصطلحات القرآنية تتحدث عن أحجام بالغة الصغر للجنين لا يمكن رؤيتها ولا قياسها إلا تحت الميكروسكوب فقط، فالنطفة يبلغ قطرها (٠.١ ملم) والعلقة يتراوح طولها بين ٠.٧ – ٣.٠ ملم والمضغة طولها ٣.٢ – ١٣ ملم، أما اختيار حروف العطف فقد جاء متميزاً للتدليل على توقيت حدوث المراحل والأطوار الرئيسية الأربعة، فجاء حرف (ثم) للإشارة إلى المراحل الأساسية، وجاء حرف (الفاء) للإشارة إلى المراحل الفرعية التي تحدث بتتابع سريع نسبياً.

ومن يقرأ القرآن الكريم يجد أن هناك وحدة متماسكة، في الحديث عن الخلق ومراحله وأطواره. لا تتغير فيها المفاهيم ولا الألفاظ مهما تكررت الإشارة إليها في آيات الذكر الحكيم، فنحن إذن أمام حقيقة عملية صحيحة دقيقة. لا تختلف مصطلحاتها ولا تتعارض ألفاظها. وحاشا لله فكيف يحدث هذا التعارض والخلاف، وهناك رب واحد عظيم هو قائلها و فيما يلي نماذج من هذه التعبيرات الإلهية البالغة الدقة:

أولاً: المفهوم الأساسي في الخلق: ومفادة أن الله هو الخالق:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ﴾(١)، ﴿بَلَى وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ﴾(٢)، ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾(٣)، ﴿هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ﴾(٤)، ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾(٥)، ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾(٦)، ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾(٧)، ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾(٨)، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾(٩)، ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾(١٠)، ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾(١)، ﴿يَخْلُقُ

(١) سورة الحجر: الآية رقم [٨٦].
(٢) سورة يس: الآية رقم [٨١].
(٣) سورة الملك: الآية رقم [١٤].
(٤) سورة الحشر: من الآية رقم [٢٤].
(٥) سورة نوح: الآية رقم [١٣].
(٦) سورة نوح: الآية رقم [١٤].
(٧) سورة الإنسان: الآية رقم [١].
(٨) سورة مريم: من الآية رقم [٩].
(٩) سورة فاطر: من الآية رقم [١١].
(١٠) سورة الرعد: الآية رقم [٨].

مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً﴾(٢).

ثانياً: مرحلة البداية:

فيها الإشارة إلى المنبع والمصدر اللذين بدأ منهما الخلق:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾(٣)، **﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾**(٤)، **﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾**(٥)، **﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾**(٦)، **﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾**(٧)، **﴿هَوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾**(٨)، **﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾**(٩)، **﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾**(١٠)، **﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ، أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾**(١١).

ثالثاً: مرحلة التخليق:

وهي مرحلة المتغيرات المتلاحقة، من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى العظام، إلى كسوتها باللحم:

النطفة:

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾(١٢)، **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾**(١٣)، **﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾**(١٤)، **﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾**(١)، **﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ**

(١) سورة الزمر: من الآية رقم [٦].
(٢) سورة الشورى: من الآيتان رقم [٤٩، ٥٠].
(٣) سورة المؤمنون: الآية رقم [١٢].
(٤) سورة السجدة: الآية رقم [٧].
(٥) سورة السجدة: الآية رقم [٨].
(٦) سورة الطارق: الآيات أرقام [٥-٧].
(٧) سورة المرسلات: الآية رقم [٢٠].
(٨) سورة غافر: من الآية رقم [٦٧].
(٩) سورة الكهف: من الآية رقم [٣٧].
(١٠) سورة فاطر: من الآية رقم [١١].
(١١) سورة الواقعة: الآيتان رقم [٥٨، ٥٩].
(١٢) سورة المرسلات: الآية رقم [٢١].
(١٣) سورة المؤمنون: الآية رقم [١٣].
(١٤) سورة الكهف: من الآية رقم [٣٧].

خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾[٢]، ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى، مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾[٣]، ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾[٤]، ﴿هَوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾[٥]، ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى﴾[٦]، ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾[٧].

العلقة:

﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[٨]، ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ﴾[٩].

المضغة:

﴿فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً﴾[١٠]، ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾[١١].

العظام:

﴿فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً﴾[١٢]، ﴿فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً﴾[١٣].

رابعاً: مرحلة النشأة:

وفيها يتم تسوية الخلق:

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[١٤]، ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[١]، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ

(١) سورة الإنسان: من الآية رقم [٢].
(٢) سورة عبس: الآية رقم [١٩].
(٣) سورة النجم: الآيتان رقم [٤٥، ٤٦].
(٤) سورة يس: من الآية رقم [٧٧].
(٥) سورة غافر: من الآية رقم [٦٧].
(٦) سورة القيامة: من الآية رقم [٣٧].
(٧) سورة النحل: من الآية رقم [٤].
(٨) سورة العلق: الآية رقم [٢].
(٩) سورة الحج: من الآية رقم [٥].
(١٠) سورة المؤمنين من الآية رقم [١٤]
(١١) سورة الحاج من الآية رقم [٥]
(١٢، ٢) سورة المؤمنون: من الآية رقم [١٤].
(١٤) سورة آل عمران: الآية رقم [٦].

وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾(٢)، **﴿هَوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾**(٣)، **﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾**(٤)، **﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾**(٥)، **﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾**(٦)، **﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾**(٧)، **﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ، فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القَادِرُونَ﴾**(٨)، **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾**(٩).

أحاديث نبوية شريفة:

قال رسول الله ﷺ: "**إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها، وخلق سمعها، وبصرها وجلدها، ولحمها وعظمها، ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك ...**"(١٠).

مر يهودي برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي، فقال لأسألنه عن شئ لا يعلمه إلا نبي قال فجاء حتى جلس ثم قال: يا محمد مم يخلق الإنسان، فقال رسول الله ﷺ: "**يا يهودي من كل يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة**"(١١).

وفيما يلي نلخص انطباعات أساتذة علم الأجنة الغربيين عن وصف مراحل الخلق البشري في القرآن والسنة وما قالوه في المؤتمرين السعوديين السابع والثامن للإعجاز العلمي في القرآن.

---

(١) سورة الانفطار: الآيتان رقم [٧، ٨].
(٢) سورة المؤمنون: الآية رقم [٧٨].
(٣) سورة غافر: من الآية رقم [٦٧].
(٤) سورة الحج: من الآية رقم [٥].
(٥) سورة الأعلى: الآية رقم [٢].
(٦) سورة الفرقان: من الآية رقم [٢].
(٧) سورة القمر: الآية رقم [٤٩].
(٨) سورة المرسلات: الآيتان رقم [٢٢، ٢٣].
(٩) سورة التين: الآية رقم [٤].
(١٠) مسلم وأبو داود والطبراني.
(١١) أخرجه أحمد في مسنده.

أبدى د. كيت مور K. Moore وهو من أكبر علماء العصر في مجال علم الأجنة والتشريح دهشته حين عرف بالآيات القرآنية التي تتحدث عن النطفة والعلقة. وبين أنه تأكد معملياً أن الجنين في مرحلة العلقة يكون معلقاً في رحم الأم وقال "حين تكاملت لي المعرفة بما جاء بالقرآن والسنة من أن العلقة تحول إلى مضغة تتبعت ذلك – فوجدت فعلاً أن الجنين في الطور الذي يلي العلقة يشبه المضغة تماماً".

وقد نشر ذلك في الصحافة الكندية – وسئل في أعقاب النشر هل هذا يعني أنه ترك المسيحية ودخل الإسلام ورد د. مور بأن المسيح ومحمد ﷺ من مدرسة واحدة!!؟ ولما سئل كيث مور لماذا لا ينشر هذه الآراء في كتبه كان عالماً صادقاً حيث أصدر الطبعة الثالثة من مؤلفه بالإضافات الإسلامية تحت العنوان التالي:

Developing human, Clinically oriented embryology, with Islamic additions

Keith L. More

وقد ترجم هذا الكتاب إلى ست لغات: الإسبانية والإيطالية والروسية والصينية واليابانية والألمانية.

وورد بالكتاب المذكور كما يلي:

(العصور الوسطى: كانت معلوماتنا عن علم الأجنة في العصور الوسطى قليلة، وفي القرآن الكتاب المقدس عند المسلمين، ورد أن الإنسان يخلق من مزيج من الإفرازات للذكر والأنثى، وقد وردت جملة إشارات تبين أن الإنسان يخلق من نطفة من المني وتبين أيضاً أن النطفة تستقر في المرأة بعد ستة أيام واتضح علمياً أن البويضة الملقحة تبدأ في النمو بعد ستة أيام من الإخصاب. وجاء في القرآن أن مظهر الجنين بعد ذلك يشبه شيئاً ممضوغاً كاللبان وقد ظهر ذلك بوضوح في الصور التى التقطت، والجنين بعد ٤٠–٤٢ يوماً لا يشبه جنين الحيوان في هذه المرحلة، ويضيف د. كيث مور في كتابه:

"ويقول القرآن أيضاً أن الجنين يتطور داخل ثلاث حجب بظلمات ثلاث أو ثلاث طبقات (الجدار الرحمي البطني – الجدار الرحمي – الغشاء الداخلي) ولا يتسع المجال لمواضيع هامة مشوقة وردت بالقرآن الكريم...) هذا ما ذكره د. كيث مور في كتابه العلمي.

وما سبق هو ما أملاه عليه ضمير العالم الباحث وهو تطابق ما ورد في القرآن والسنة وما توصل إليه بعلمه.

ويقف د. كيث مور ليذكر في أحد المؤتمرات العلمية ما يلي: "لأن مراحل تكون الجنين البشري معقدة .. وذلك بسبب التغيرات المستمرة التي تطرأ عليه .. فإنه يصبح بالإمكان تبني نظام جديد في التصنيف باستخدام الاصطلاحات والمفاهيم التي ورد ذكرها في القرآن والسنة ويتميز النظام الجديد لتقسيمات مراحل خلق الإنسان بالبساطة والشمولية وينسجم ويتطابق مع علم الأجنة الحالي – ولقد كشفت الدراسات المكثفة للقرآن والسنة خلال السنوات الأخيرة عن تصنيف مدهش للأجنة البشرية لأن ذلك سجل في القرن السادس الميلادي في حين أن علم الأجنة لم يعرف شئ عن تطور وتصنيف الأجنة البشرية إلا مع حلول القرن العشرين ولهذا السبب فإن أوصاف القرآن للأجنة البشرية لا يمكن بناؤها على المعرفة العلمية للقرن السادس الميلادي.. والاستنتاج الوحيد المعقول هو أن الله قد أوحى بها إلى محمد ﷺ وما كان له أن يعرف هذه التفاصيل، لأنه كان أمياً ولهذا لم يكن قد نال تدريباً علمياً؟!! ﷺ وقد أضاف د. كيث مور الآيات والأحاديث النبوية إلى كتابه الذي سبقت الإشارة إليه.

وصدق قوله الله تعالى: ﴿**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ**﴾(١).

أما الدكتور مارشيال جونسون رئيس قسم التشريح ومدير معهد دانيال بجامعة توماس جيفرسون بفلادلفيا بأمريكا فقد قدم في المؤتمر السعودي السابع للإعجاز العلمي للقرآن بحوثه عن الوصف الدقيق للجنين ولتركيباته الداخلية.

وقدم صوراً علمية حديثة أخذت للجنين وهو مضغة وبطول سنتيمتر واحد أخذ في الدوران حول نفسه – وأظهرت الصورة التطور الخلقي للمضغة وذكر أن الوصف المضغي يصدق على المضغة المخلقة والمضغة غير المخلقة وكما ذكر القرآن: ﴿**مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ**﴾(٢).

(١) سورة سبأ: الآية رقم [٦].
(٢) سورة الحج: من الآية رقم [٥].

وقال ماريشال جونسون: لو أنني نقلت نفس فرضاً إلى الفترة التي نزل فيها القرآن. وحتى بمعرفتي لما ذكرته اليوم – وإذا أردت وصف هذا العمل لما استطعت وصف الأشياء التي وصفت بالقرآن وأنني لا أرى سبباً ولا أرى دليلاً على أن الرسول محمد الفرد – قد حصل على هذه المعلومات وطورها من أي جهة كانت – ولذلك فإنني لا أرى شيئاً مع مفهوم أن التدخل الإلهي كان شاملاً للعلم الذي كان على النبي محمد ﷺ أن يبلغه!! وقال مكرراً انه الوحي والوحي فقط من الله سبحانه وتعالى، ونردد قوله تعالى: ﴿**وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**﴾(١) إنه الإعجاز الحق!!

ويقول د ج. سامسونج G. Samsong: وهو أستاذ أمراض النساء والولادة بجامعة مارت وستن، شيكاغو، أمريكا في المؤتمر السعودي للإعجاز العلمي للقرآن عن خصوصية خلق الإنسان.

"يخلق الإنسان من النطفتين .. أي بعد اجتماع نطفة الذكر وبويضة الأنثى وبعد ذلك يتقرر البرنامج الوراثي في الكروموزومات من لون العين والجلد والشعر فالإنسان مقدر في مرحلة الكروموزومات التي هي مرحلة النطف)!!

وهذه المقولة تتطابق مع قول الله تعالى: ﴿**قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ**﴾(٢). ويعود د. جولي سامسونج ليقرر:

"تظهر جميع أجزاء الجنين خلال الأربعين يوماً الأولى والجنين يكون منحنياً على نفسه"!! وهذا يتفق وحديث رسول الله ﷺ الذي ورد في صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ: "**إذا مر بالنطفة اثنان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ثم قال يا رب ذكر أم أنثى فيقضي ربك ما يشاء.. ويكتب الملك ثم يقول: يا رب أجله؟ فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك!! ثم يقول يا رب رزقه؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك؟ ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد عل ما أمر ولا ينقص!!**".

(١) سورة ص: الآية رقم [٨٨].
(٢) سورة عبس: الآيات أرقام [١٧-١٩].

وفي هذا الحديث حدد سيدنا رسول الله ﷺ التوقيت الزمني دون استرسال بتتابع الزمن بمدة ٤٢ يوماً تحديداً .. حيث قال ﷺ: "**إذا مر بالنطفة ٤٢ ليلة بعث الله ملكاً فصورها**"!!.

ويقرر د. بارتان ت. ف. Partan T. V.: رئيس قسم التشريح بفينتوبا بكندا والذي له مؤلفات عديدة في أمراض النساء والولادة وله بحوثه القرآنية: "إنني لأجد الحق في أن أوافق عقلي: وأقول إن إلهاماً إلهياً أو وحياً قاد الرسول ﷺ إلى عرض القضايا بهذا الشكل وأضاف وبدراسة الحديث الشريف الذي رواه مسلم وفيه يقول قال رسول الله ﷺ: "**إذا مر بالنطفة اثنان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ثم قال يا ربي أذكر أم أنثى فيقضي ربك ما يشاء ...**".

أقرر أن: الصورة للجنين في اليوم السابع والثلاثين لا تمييز فيها للإنسان والصورة في بداية اليوم الثاني والأربعين ليس فيها شكل إنسان أبداً. أما في نهاية اليوم الثاني والأربعين وبعد مرور المدة المقرر الواردة بالحديث فقد تم تصوير الجنين، ويوضح أن الجنين في المرة الثالثة هذه أي بعد مضي ٤٢ يوماً يصبح واضح المعالم".

وصدق الله العظيم حيث يقول[١]: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾[٢]. وهكذا نرى علماء الأجنة لا يضيفون جديداً، وإنما قرروا ما أثبته القرآن الكريم، وحديث المصطفى ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، وسبقهم علماء التفسير الذين قرروا أن الجنين يخلق من مائي الرجل والمرأة معاً، فالسبق في هذا المضمار يعد للقرآن الكريم وللحديث الشريف النبوي ولعلماء التفسير.

ما ترشيد إليه الآيات الكريمة:

أولاً: دعوة الله جميع بني الإنسان للتفكر وإعمال النظر في مبدأ خلق الإنسان.

ثانياً: إعجاز اللفظ القرآني "من" في قوله تعالى (خلق من ماء دافق) حيث أن من فيه للتبعيض، وهذا ما أثبته العلم الحديث اليوم أن المخلوق إنما يخلق من بعض الماء وليس كله.

(١) يراجع الإعجاز العملي في القرآن الكريم: د.ت عاطف قاسم، وأطوار الخلق في تاريخ الإنسان: د. أحمد شوقي، والعليم طريق الإيمان: للشيخ عبد المجيد الزنداني، وأنت تسأل والشيخ الزنداني يجيب جول الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للشيخ عبدالمجيد الزنداني.

(٢) سورة النجم: الآيتان رقم [٣، ٤].

ثالثاً: بيان إعجاز اللفظ القرآني "الصلب والترائب" وأنه كناية عن الرجل والمرأة وما يقوم به كل واحد منهما من دور، وما قدر لكل واحد منهما من وظيفة، فالمني للرجل والبويضة للمرأة، وهذا ما أثبته العلم الحديث اليوم.

رابعاً: بيان طلاقة القدرة الإلهية في خلق الإنسان، وإبداع الرحمن له في هذا الصنع العجيب ﴿**هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾(١).

خامساً: عظم الصنعة يدل على عظم الصانع ووجوده وحكمته، وأنه لا خالق في هذا الكون سواه، ولا مبدع غيره، فهو المستحق للعبادة والتقديس لا رب سواه.

سادساً: كل موجود لابد له من موجد، وكل مصنوع لابد له من صانع، وموجد الإنسان وصانعه هو الله سبحانه وتعالي الملك المعبود، الواجب الوجود.

سابعاً: رحمة الله اللا محدودة واللا متناهية بهذا الإنسان المخلوق العجيب في جميع أطوار حياته وسنى عمره.

(١) سورة لقمان: الآية رقم [١١].

إثبات المعاد

قال تعالي ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ، يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ، فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ﴾

المعاني اللغوية للآيات الكريمة:

إنه: الضمير فيه للخالق سبحانه وتعالي لا رب سواه.

الرجع: مصدر رجعت الشئ إذا ردتته[١].

لقادر: القادر هو الذي يفعل بالقصد والاختيار[٢].

يوم تبلى: أي تختبر.

السرائر: ما أسر في القلوب من العقائد والنيات، وما أخفى من الأعمال.

فما له من قوة ولا ناصر: الضمير عائد إلى الإنسان، والمقصود المشركون من الناس لأنهم المسوق لأجلهم هذا التهديد، أي فما للإنسان المشرك من قوة يدفع بها على نفسه، وما له من ناصر يدافع عنه[٣].

فقه الآيات المجيدات:

ويتناول بعون الله ما يلي:

أ- مرجع الضمير في قوله سبحانه (على رجعه لقادر)

ب- معنى قوله تعالي: (يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر).

ج- ما ترشد إليه الآيات الحكيمات.

أ- مرجع المضير في قوله تعالي (على رجعه لقادر):

فيه وجهان:

أولهما: وهو الأقرب أنه راجع إلى الإنسان، والمعنى أن الذي قادر على خلق الإنسان ابتداء وجب أن يقدر بعد موته على رده حياً، وهو كقوله: ﴿**يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾[٤]، وقوله تعالى ﴿**وهو أهون عليه**﴾[٥].

(١) التفسير الكبير: [المجلد ١٦: ١٢١/٣١].
(٢) التعريفات: [ص ١٧١].
(٣) التحرير والتنوير: [٢٦٥/٣٠].
(٤) سورة يس: من الآية رقم [٧٩].
(٥) سورة الروم: من الآية رقم [٢٧].

وثانيهما: أن الضمير غير عائد إلى الإنسان قال مجاهد قادر على أن يرد الماء في الإحليل.

قال عكرمة والضحاك قادر على أن يرد الماء في الصلب.

قال عكرمة والضحاك أيضاً قادر على أن يرد الإنسان ماء كما كان قبل.

قال مقاتل بن حيان إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا، إلى النطفة(١).

وقد رجح الإمام فخر الدين الرازي القول الأول قائلاً: واعلم إن القول الأول أصح، ويشهد له قوله سبحانه وتعالى: (يوم تبلى السرائر) أي أنه قادر على بعثه يوم القيامة.

ب- معنى قوله عز وجل (يوم تبلى السرائر فما له من ناصر):

يوم تبلى: منصوب برجعه، ومن جعل الضمير في رجعه للماء، وفسره برجعه إلى مخرجه من الصلب والترائب أو الإحليل أو إلى الحالة الأولى نصب الظرف بمضمر.

السرائر: ما أسر في القلوب من العقائد والنيات وغيرها وما أخفي من الأعمال.

وبلاؤها: تعرفها وتصفحها، والتمييز بين ما طاب منها وما خبث، وعن الحسن أنه سمع رجلاً ينشد:

سيبقى لها في مضمر القلب والحشا سريرة ود يوم تبلى السرائر

فقال ما أغفله عما في (السماء والطارق)(٢).

وفي كيفية الابتلاء والاختبار ههنا أقوال:

الأول: ما ذكره القفال معنى الاختبار ههنا أن أعمال الإنسان يوم القيامة تعرض عليه، وينظر أيضاً في الصحيفة التي كتبت الملائكة فيها تفاصيل أعمالهم ليعلم أن المذكور هل هو مطابق للمكتوب، ولما كانت المحاسبة يوم القيامة واقعة على هذا الوجه جاز أن يسمي هذا المعنى ابتلاء، وهذه التسمية غير بعيدة للعبارة لأنها ابتلاء وامتحان وأن كان عالماً بتفاصيل ما عملوه وما لم يعملوه.

(١) التفسير الكبير [المجلد ٣١/١٦] بتصرف، وروح المعاني [٩٨/٣٠، ٩٩]
(٢) الكشاف: [٢٤١/٤].

الثاني: أن الأفعال إنما يستحق عليها الثواب والعقاب لوجوهما، فرب فعل يكون ظاهره حسناً وباطنه قبيحاً وربما كان العكس فاختبارها ما يعتبر بين تلك الوجوه المتعارضة من المعارضة والترجيح، حتى يظهر أن الوجه الراجح ما هو، والمرجوح ما هو.

الثالث: قال أبو مسلم بلوت يقع على إظهار الشئ، ويقع على امتحانه كقوله: (ونبلوا أخباركم) وقوله (ولنبلوكم).

ثم قال المفسرون: (السرائر) التى تكون بين الله وبين العبد تختبر يوم القيامة حتى يظهر خيرها من شرها، ومؤديها من مضيعها، وهذا معنى قول ابن عمر رضى الله عنهما: يبدي الله تعالى كل سر منها، فيكون ذيناً، في الوجوه وشيناً في الوجوه، يعني من أداها كان وجهه مشرقاً، ومن ضيعها كان وجه أغبر.

دلت الآية على أنه لا قوة للعبد ذلك اليوم، لأن قوة الإنسان إما أن تكون له لذاته أو مستفادة من غيره فالأول منفي لقوله تعالى: (فما له من قوة) والثاني منفي بقوله (ولا ناصر) والمعنى ماله من قوة يدفع بها عن نفسه ما حل من العذاب.

(ولا ناصر) ينصره في دفعه، ولا شك أنه زجر وتحذير.

ومعنى دخول من في قوله: (من قوة) على وجه النفي لقليل ذلك وكثيره كأنه قيل: ما له من شئ من القوة ولا أحد من الأنصار[1].

لأن كلمتي قوة وناصر وقعتا في سياق النفي "ما" و"لا" زجاءتنا نكرة لتفيد بذلك العموم، والنكرة إذا وقعت في سياق النفي أفادت العموم.

ما ترشد إليه الآيات المباركات:

أولاً: قدرة الله سبحانه وتعالى على بعث الإنسان للحساب والثواب والعقاب.

ثانياً: الحث على العمل الصالح، واغتنام الأوقات، وترك السيئات.

ثالثاً: الترهيب من يوم القيامة الذي تكشف من الأستار، وتتجلى فيه الحقائق، وتتعرى فيه النفوس.

(١) التفسير الكبير: [المجلد ١٦/٣١/١٣٢].

رابعاً: بيان ضعف الإنسان الشديد، وتجريده مما يقويه أو ينصره.

خامساً: فرح المؤمنين بزوال القوة عن المتكبرين والمتجبرين في الأرض بغير الحق.

سادساً: بيان الذل الواقع بالمتكبرين والمتجبرين في الأرض بغير الحق، وتخلي الناصرين الذين كانوا ينصرونهم في الدنيا ويدفعونهم إلى الطغيان والفساد يوم القيامة ليظهر صغارهم، وضعفهم، وذلهم ومهانتهم.

سابعاً: لا مهرب من يوم القيامة والبعث، ولا منجي منه، ولا ملجأ من الله جل وعلا إلا إليه (فأين تذهبون).

ثامناً: بيان قوة الله الخارقة، وأنه قادر على بعث الإنسان، لا يعجزه أن يبعثه، كما لم يعجزه خلقه الأول على غير مثال سابق ﴿**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾(١)، ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ، بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ**﴾(٢)، ﴿**قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ**﴾(٣).

تاسعاً: أنه في البعث حفاظ على نواميس الكون، وصلاحية للحياة، وإصلاح لبني الإنسان، وتقدير لمسؤولياته، ورفع لقدره ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى، أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أن يُحْيِيَ المَوْتَى**﴾(٤).

(١) سورة الأنبياء: من الآية رقم [١٠٤].
(٢) سورة القيامة: الآيتان رقم [٣، ٤].
(٣) سورة ق: الآية رقم [٤].
(٤) سورة القيامة: الآيات أرقام [٣٦-٤٠].

صدق القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ، وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ، إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ، إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً، وَأَكِيدُ كَيْداً، فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾(١).

المعاني اللغوية للآيات المباركة:

الرجع: المطر، لأنه يعود كل حين، فالسحاب تحمل الماء من الأمطار ثم ترجعه إلى الأرض، ويسمى أوبا، لأنه يؤوب أي يرجع.

الصدع: الشق، لأنه يصدع الأرض، فتتصدع به، وفي الأساس وانصدعت الأرض بالنبات، وصدعها الله سبحانه وتعالى(٢).

إنه: الضمير الواقع اسماً لـ (إن) عائد إلى القرآن وهو معلوم من المقام.

فصل: مصدر بمعنى التفرقة، والمراد أنه يفصل بين الحق والباطل، والإخبار بالمصدر للمبالغة أي أنه لقول فاصل.

الهزل: ضد الجد أعني المزح واللعب، ويجوز أن يطلق على الهزيان.

كيدا: في الموضوعين مفعول مطلق مؤكد لعامله وقصد منه مع التوكيد تنوين تنكيره الدال على التعظيم.

والكيد: إخفاء قصد الضر، وإظهار خلافه، فكيدهم مستعمل في الحقيقة، وأما الكيد المسند إلى ضمير الجلالة (وأكيد) فهو مستعمل في الإمهال مع إرادة الانتقام عند وجود ما تقتضيه الحكمة من إنزاله بهم وهو استعارة تمثيلية، شبهت هيئة إمهالهم وتركهم مع تقدير إنزال العقاب بهم بهيئة الكائد يخفي إنزال ضره، ويظهر أنه لا يريده وحسّنها محسن المشاكلة.

فمهل: التمهيل مصدر مهل بمعنى أمهل وهو الإنظار إلى وقت معين أو غير معين.

الكافرين: المراد بهم ما عاد عليه ضمير "أنهم يكيدون" فهو إظهار في مقام الإضمار للنداء عليهم بذمة الكفر، فليس المراد جميع الكافرين بل أريد الكافرون المعهودون.

---

(١) سورة الطارق: الآيات رقم [١١-١٧].
(٢) إعراب القرآن لمحيى الدين الدرويش [٧٨/٨].

رويدا: تصغير رود بضم الراء بعدها واو، ولعله اسم مصدر، وأما قياس مصدره فهو رَوْد بفتح الراء وسكون الواو، وهو المهل وعدم العجلة، وهو مصدر مؤكد للفعل "أمهلهم" فقد أكد قوله(فمهل الكافرين) مرتين(١).

فقه الآيات المباركات:

وبمشيئة الله يشتمل الحديث فيه على ما يأتي:

أ- أقوال أئمة التفسير في قوله تعالى: (والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع) من الإمام عبد الرزاق بن همام إلى الإمام محمد عبده.

ب- التفسير العلمي لقوله سبحانه: (والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع) على ضوء العلم الحديث.

ج- بيان المقسم عليه المسمى "جواب القسم".

د- معنى قوله تعالي: (إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً فمهل الكافرين أملهم رويداً".

ما ترشد إليه الآيات المباركات.

أ- أقوال أئمة التفسير في قوله تعالى: (والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع) من الإمام عبد الرزاق بن همام إلى الإمام محمد عبده:

١ - الإمام عبد الرزاق:

نا عبد الرزاق، عن الثوري، عن خصيف عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: (والسماء ذات الرجع)، قال: ذات المطر. (والأرض ذات الصدع) قال ذات النبات(٢).

عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى: (والسماء ذات الرجع)، قال: ترجع بالغيث كل عام (والأرض ذات الصدع)، قال: تتصدع عن النبات(٣).

٢ - الإمام الطبري:

(١) التحرير والتنوير: [٣٠/٢٦٦-٢٦٩] بتصرف.

(٢) وأخرجه الإمام الطبري في تفسيره: (٣٠/١٤٨٠) ويراجع تفسير البحر المحيط للإمام أبي حيان: (٨/٤٥٦)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي: (٦/٣٣٦)، وعزاه إلى عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس.

(٣) تفسر الإمام عبد الرزاق للإمام عبد الرزاق بن همام: (٣/٤١٦-٤١٧).

(والسماء ذات الرجع) ترجع بالغيوث، وأرزاق العباد كل عام. (والأرض ذات الصدع) بالنبات[١].

٣ – الإمام البغوي:

(والسماء ذات الرجع) ذات المطر لأنه يرجع كل عام ويتكرر وقال ابن عباس: هو السحاب، يرجع بالمطر. (والأرض ذات الصدع) تتصدع وتتشق عن النبات والأشجار والأنهار[٢].

٤ – الإمام ابن عطية:

السماء في هذا القسم يحتمل أن تكون السماء المعروفة، ويحتمل أن يكون السحاب و(الرجع) المطر وماؤه ومنه قول الهذلي: (السريع)

أبيض كالرجع رسوب إذا ما ثاخ من محتفل يختل[٣]

وقال ابن عباس: (الرجع) السحاب فيه المطر.
وقال الحسن: لأنه يرجع بالرزق كل عام.
وقال غيره: لأنه يرجع إلى الأرض.
وقال ابن زيد: (الرجع) مصدر رجوع الشمس والقمر والكواكب من حال إلى حال، ومنه منزلة تذهب وترجع.

(والصدع): النبات لأن الأرض تتصدع منه، وهذا قول من قال إن (الرجع): المطر وقال مجاهد: (الصدع) ما في الأرض من شعاب وخندق وتشقق بحرث وغيره، هي أمور فيها معتبر، وهذا قول يناسب القول الثاني في الرجع[٤]

٥ – الإمام الزمخشري:

(والسماء ذات الرجع) سمي المطر رجعاً كما سمى قال:

رَبَّاءُ شَمَّاءُ لا يساوي لِقُلتها إلا السحاب وإلا الأوب والسَّبَلُ[١]

(١) المصحف المفسر للإمام الطبري: (ص ٥٩١).
(٢) معالم التنزيل: (٣٩٥/٨).
(٣) البيت اللمتخل الهذلي بصف سيفا شبهه بالماء ومعنى المحتفل: أعظم موضع في الجسد ويختلي: يقطع.
(٤) المحرر الوجيز: (٤٦٦/٥، ٤٦٧).

تسمية باسم رجع وآب، وذلك أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بخار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض، أو أراد التفاؤل فسموه رجعاً وأوباً ليرجع ويؤوب. وقيل بأن الله يرجعه وقتاً فوقتاً، قالت الخنساء: كالرجع في المدجنة السارية.

والصدع: ما يتصدع عنه الأرض من النبات(٢).

٦ – الإمام فخر الدين الرازي:

واعلم أنه سبحانه وتعالي لما فرغ من دليل التوحيد والمعاد أقسم قسماً آخر، أما قوله سبحانه وتعالى: (والسماء ذات الرجع) فنقول: قال الزجاج الرجع المطر: لأنه يجئ ويتكرر.

واعلم أن كلام الزجاج وسائر أئمة اللغة صريح في أن الرجع ليس اسماً موضوعاً للمطر بل سمى رجعاً على سبيل المجاز، ولحسن هذا المجاز وجوه:

أحدها: قال القفال: لأنه من ترجيع الصوت وهو إعادته ووصل الحروف به، فكذا المطر يكون عائداً مرة بعد أخرى سمي رجعاً.

وثانيها: أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض.

وثالثها: أنهم أرادوا التفاؤل فسموه رجعاً ليرجع.

ورابعها: أن المطر يرجع في كل عام إذا عرفت هذا فنقول للمفسرين أقوال:

أحدها: قال ابن عباس (والسماء ذات الرجع) أي: المطر بعد المطر.

ثانيهما: رجع السماء إعطاء الخير الذي يكون من جهتها حالاً بعد حال على مرور الأزمان ترجعه رجعاً أي تعطيه مرة بعد أخرى.

وثالثها: قال ابن زيد: هو أنها ترد وترجع شمسها وقمرها بعد مغيبهما، والقول هو الأول أما قوله تعالى (والأرض ذات الصدع) فاعلم أن

---

(١) البيت للمتخل الهذلي. قال السكري في شرح هذا البيت: رباء يربأ فوقها، يقول لا يدنو لقلتها أي لرأسها. أي لا يعلو هذه الهضبة من طولها إلا السحاب والأوب. والأوب: رجوع النحل، والسبل: القطر حين يسيل.

(٢) الكشاف (٤/٢٤١، ٢٤٢).

الصدع هو الشق، ومنه قوله تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ**﴾[١] أي يتفرقون. وللمفسرين أقوال

قال ابن عباس: تنشق عن النبات والأشجار

وقال مجاهد: هما الجبلان، بينهما شق وطريق نافذ كما قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً**﴾[٢].

وقال الليث: الصدع نبات الأرض لأنه يصدع الأرض فتتصدع به، وعلى هذا سمى النبات صدعا لأنه صادع للأرض وأعلم أنه سبحانه وتعالى كما جعل كيفية خلقة الحيوان دليلاً على معرفة المبدأ والمعاد ذكر في هذا القسم كيفية خلق النبات، فالسماء ذات الرجع كالأب والأرض ذات الصدع كالأم، وكلاهما من النعم العظام، لأن نعم الدنيا موقوفة على ما ينزل من السماء من المطر متكرراً، وعلى ما ينبت من الأرض كذلك[٣].

٧ – الإمام القرطبي:

(والسماء ذات الرجع) أي ذات المطر، ترجع كل سنة بمطر بعد مطر كذا قال عامة المفسرين وقال أهل اللغة: الرجع المطر، وقال الخليل: الرجع المطر ذاته، والرجع أيضاً نبات الربيع وقيل: (ذات الرجع): أي ذات النفع وقد يسمى المطر أوبا كما يسمى رجعاً، وقال عبد الرحمن بن زيد: الشمس والقمر والنجوم يرجعن في السماء، وتطلع من ناحية وتغيب في أخرى. وقيل: ذات الملائكة لرجوعهم إليها بالأعمال وهذا قسم.

والأرض ذات الصدع قسم آخر أي تتصدع عن النبات والشجر والثمار والأنهار نظيره ﴿**ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً**﴾[٤] والصدع بمعنى الشق لأنه يصدع الأرض فتتصدع به، وكأنه قال: والأرض ذات النبات لأن النبات صادع للأرض، وقال مجاهد: والأرض ذات الطرق التي تصدعها المشاة وقيل: ذات الحرث لأنه يصدعها، وقيل: ذات الأموات لانصداعها عنهم بالنشور[٥].

(١) سورة الروم: من الآية رقم [٤٣].
(٢) سورة الأنبياء: من الآية رقم [٣١].
(٣) مفاتيح الغيب المجلد [١٦] ١٣٣/٣١].
(٤) سورة عبس: الآية رقم [٢٦].
(٥) الجامع لأحكام القرآن: [١٠/٢٠، ١١].

٨ – الإمام بن كثير:

(والسماء ذات الرجع)، قال ابن عباس: الرجع: المطر، وعنه هو السحاب فيه المطر وعنه: (والسماء ذات الرجع) تمطر ثم تمطر، وقال قتادة: ترجع رزق العباد كل عام ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم، وقال ابن زيد: ترجع نجومها وشمسها وقمرها يأتين من ههنا.

(والأرض ذات الصدع)، قال ابن عباس: هو انصداعها عن النبات وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وأبو مالك والضحاك والحسن وقتادة والسدي وغير واحد(١).

٩ – الإمام البيضاوي:

(والسماء ذات الرجع) ترجع في كل دورة إلى الموضع الذي تتحرك عنه، وقيل الرجع المطر سمى به كما سمى أوباً لأن الله يرجعه وقتاً فوقتاً، أو لما قيل أن السحاب يحمل ماء من البحار ثم يرجعه إلى الأرض، وعلى هذا يجوز أن يراد بالسماء السحاب.

(الأرض ذات الصدع) ما تتصدع عنه الأرض من النبات أو الشق بالنبات والعيون(٢).

١٠ – الإمام أبي السعود:

(والسماء ذات الرجع) أي المطر سمى رجعاً لما أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض، أو أرادوا بذلك التفاؤل ليرجع ولذلك سوه أوبا، أو لأن الله تعالى يرجعه.

(والأرض ذات الصدع) هو ما تتصدع عنه الأرض بالنبات، أو مصدر من المبنى للمفعول وهو تشققها بالنبات لا بالعيون كما قيل، فإن وصف السماء والأرض عند الإقسام بهما على حقيقة القرآن الناطق بالبعث بما ذكر من الوصفين للإيماء إلى أنهما في أنفسهما من شواهده، وهو السر في التعبير بالصدع عنه وعن المطر بالرجع، وذلك

(١) تفسير الإمام ابن كثير: [٤/٤٣٦].
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: [٥/١٨١].

في تشقق الأرض بالنبات المحاكي للنشور حسبما ذكر في مواقع من التنزيل لا في تشققها بالعيون(١).

١١ – الإمام محمد عبده:

بعد أن أكد الله سبحانه بالقسم الأول أن على الأنفس رقيباً، واستدل عليه وذلك إثبات للألوهية، وتقرير لإحاطة علم الله وقدرته بالأنفس في جميع أطوارها وهو الركن الأول من أركان عقائد الدين، وبعد أن بين قدرته على إعادة الإنسان بعد موته وهو إثبات لليوم الآخر الذي هو الركن الثاني، جاء بنا إلى هذا الركن الثالث من أركان عقائد الدين وهو رسالة سيدنا محمد ﷺ، فابتدأ الكلام فيه بقسم أيضاً لشدة نزاع الجاحدين فيها حيث قال: (والسماء ذات الرجع) إن الله يقسم بالأمر له مزية يعرفها المخاطب إعظاماً لتلك المزية لهذا قال: (والسماء ذات الرجع) والرجع في لسان العرب هو الماء وأمتع شئ ينتظره المخاطبون من السماء هو الماء، ماء المطر، ومن فسر الرجع بالمطر لم يبعد عن المعنى (والصدع) النبات لأنه يصدع الأرض أي يشقها، وأفضل ما تميل إليه الأنفس من الأرض نباتها(٢).

وبعد هذا العرض الطويل لآراء السادة أئمة التفسير من الإمام عبد الرزاق إلى الإمام محمد عبده رحمهم الله جميعاً يتبين لنا الآتي:

أن تفسيرهم لمعنى (الرجع) الوارد في قوله تعالى: (والسماء ذات الرجع) لا يبتعد عن:

أ– المطر ب– الغيث والزرق ج– السحاب
د– رجوع الشمس والقمر والنجوم من حال إلى أخرى
هـ– إعطاء الخير والنفع و– الملائكة
ز– عودة السماء كل دورة إلى الموضع الذى تحركت عنه

وكل هذه التفسيرات تصلح أن تكون تفسيراً لمعنى (الرجع)، حيث إن الآية المباركة تتحمل جميع الآراء من غير تعارض أو تضارب أو تضاد فيما ورد مع مدلولها.

(١) إرشاد العقال السليم إلى مزايا القرآن الكريم: [١٤٢/٩].
(٢) تفسير جزء عم: [ص ٧٥].

وأيضاً ما ورد في التفسير لا يتعارض مع ما جاء في التفسير اللغوي للآية المباركة وبناء على ما قلناه يمكن القول بعون الله ومدده في قوله تعالى (والسماء ذات الرجع) أي ذات السحاب والمطر، المغيث للعباد والبلاد الجامع لأرزاقهم بما يعود عليهم من خير ونفع وسعادة، وهي ذات ملائكة تسكنها يخرجون منها ويعودون إليها بأمر الله، وهذه السماء العظيمة التي تحمل لك الخير والبركة والرزق - أيها الإنسان - بها شموس ونجوم وأقمار ويتحولون من حال إلى أخرى بحركة سريعة مذهلة. ينشأ عنها حدوث الفصول الأربعة فسبحان الله .. فسبحان الله .. فسبحان الله ﴿**لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾(١).

فهذا ما أمكننا قوله في معنى (الرجع) ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والله أعلى وأعلم.

وأما ما جاء عن السادة أئمة التفسير رحمهم الله في معنى (الصدع) الوارد في قوله تعالى (والأرض ذات الصدع) فإنه لا يبعد تفسيره عندهم عما يلى:

أ- الصدع: النبات ب- الشعاب والخنادق والشقوق والحرث

ج- الأموت

ويمكننا القول بمشيئة الله وعونه بأن تفسير الأئمة (للصدع) تتحمله الآية الكريمة ولا يوجد تعارض أو تضارب مع مدلولها. وكذلك ما جاء في المدلول اللغوي لها. فالأرض ذات صدع يعنى ذات نبات وطرق وشقوق وحرث وهذه الأرض - أيها العاقل - التي تمنحك من خيراتها ولا تمنعك من السير في طرقها، مشتملة على أموات ستكون واحداً منهم في يوم لا محالة وستنشق الأرض عن الجميع للمثول بين يدي الله عز وجل للسؤال والحساب كما تشققت من ذى قبل بالنبات. والله أعلى وأعلم ولا حول ولا قوة إلى بالله العلي العظيم.

ب- التفسير العلمي لقوله عز وجل: (والسماء ذات الرجع، والأرض ذات الصدع) في ضوء العلم الحديث:

(١) سورة يس: الآية رقم [٤٠].

حقائق علمية:

١- تقوم الطبقة الأولى من الغلاف الجوي "التروبوسفير Troposphere" بإرجاع بخار الماء إلى الأرض على شكل أمطار، وبإرجاع الحرارة إليها أيضاً في الليل على شكل غاز ثاني أكسيد الكربون CO_2.

٢- يعتبر الغلاف الجوي للأرض درعاً واقياً عظيماً يحمى كوكب الأرض من الشهب والنيازك والإشعاعات القاتلة للأحياء، وذلك بفضل الطبقة الثانية من طبقاته وهي "الستراتوسفير Stratosphere".

٣- تعتبر الطبقة الرابعة من طبقات الغلاف الجوي وهي "الثيرموسفير Thermosphere" ذات رجع فهي تعكس موجات الراديو القصيرة والمتوسطة إلى الأرض.

التفسير العلمي:

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز: (والسماء ذات الرجع) تشير الآية الكريمة إلى أن أهم صفة للسماء هي أنها ذات رجع فما معنى الرجع؟

الرجع في اللغة كما يقو ابن منظور في لسان العرب: هو محبس الماء وقال اللحياني: سميت السماء بذات الرجع لأنها ترجع بالغيث وكلمة الرجع مشتقة من الرجوع وهو العودة والعكس، ومعنى الآية أن السماء تقوم بوظيفة الإرجاع والعكس وقد جاء العلم ليؤكد هذا التفسير فقد كشف علماء الفلك أن طبقة التروبوسفير التي هي إحدى طبقات الغلاف الجوي للأرض تقوم بإرجاع ما تبخر من الماء على شكل أمطار إلى الأرض من خلال دورة دائمة سميت بدورة تبخر الماء.

كما اكتشف علماء الفلك أيضاً أن طبقة الستراتوسفير وهي التي تضم طبقة الأوزون تقوم بإرجاع وعكس الإشعاعات الضارة المافوق بنفسجية إلى الفضاء الخارجي، وبالتالي فهي تحمي الأرض من الإشعاعات الكونية القاتلة، فهي تعتبر حاجزاً منيعاً يحول دون وصول كميات كبيرة من ضوء الشمس وحرارتها إلى الأرض، كما نصت على ذلك الموسوعة البريطانية.

أما طبقة الثيرموسفير فإنها تقوم بعكس وإرجاع موجات الراديو القصيرة والمتوسطة التردد AM، SW الصادرة من الأرض وهذا ما يفسر إمكانية استقبال هذه الموجات من مسافات بعيدة جداً، وقد ذكرت ذلك بالتفصيل الموسوعة البريطانية.

ويتضح مما تقدم أن أهم صفة للسماء كشف عنها العلماء في القرن العشرين هي أنها ذات رجع.

فسبحان الله الذي قال في كتابه المعجز: (والسماء ذات الرجع).

وجه الإعجاز:

وجه الإعجاز في الآية القرآنية هو دلالتها الواضحة على أن أهم صفة للسماء هي أنها ذات رجع، وهذا ما كشفه العلم في القرن العشرين(١).

وبهذا يتبين لنا تعانق التفسير العلمي وتوافقه مع ما قاله أئمة التفسير ومعنى ذات (الصدع) أي تتصدع فتنشق ليخرج منها النبات بعد ارتوائها بماء المطر كما أنها ذات الصدوع التي تكونت في باطنها، وصارت مكامن تتفجر فيها موارد الغاز الطبيعي والبترول وفيها منبع المياه المعدنية والبركانية.

ج- بيان المقسم عليه المسمى (جواب القسم):

علمنا فيما سبق بعون الله ومدده أن الله سبحانه أقسم بالسماء وأقسم بالطارق، وقلنا بأن جوابه قوله تعالى (إنه على رجعه لقادر) وقد كرر سبحانه وتعالى القسم مرة ثالثة بالسماء ذات الرجع، وأقسم بالأرض ذات الصدع مرة رابعة.

وجواب هذا القسم هنا قوله تعالى (إنه لقول فصل، وما هو بالهزل) جواباً عن القسم لقوله تعالى (والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع).

يقول الإمام الزمخشري رحمه الله: (إنه) الضمير للقرآن (فصل) فاصل بين الحق والباطل كما قيل: له فرقان (وما هو بالهزل) يعني أنه جد كله لا هوادة فيه، ومن حقه وقد وصفه الله بذلك أن يكون مهيباً في الصدور معظمها في القلوب ويترفع به قارئه

(١) الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للأستاذ عماد زكي البارودي [ص ٢٨، ٢٩]، ويراجع الإعجاز العملي في خلق الكون للأستاذ إبراهيم محمد الجمل [ص ٢٨، ٢٩]، ويراجع العلوم والمستقبل للصف الأول الإعدادي: [ص١٣]، أ. د. أحمد عبد الفتاح الشاذلي.

وسامعه أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح، وأن يلقي ذهنه إلى أن جبار السماوات والأرض يخاطبه ويأمره وينهاه ويعده ويوعده حتى إن لم يستفزه الخوف ولم تبالغ فيه الخشية، فأدنى أمره أن يكون جاداً غير هازل، فقد نعى الله ذلك على المشركين في قوله تعالى: ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ، وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾(١، ٢).

ويقول الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله تعالى (إنه لقول فصل)
قال ابن عباس: حق وكذا قال قتادة.
وقال آخر: حكم عدل
(وما هو بالهزل) أي هو جد حق(٣).
وبها يتبين لنا أن المولى عز وجدل أقسم على صحة الكتاب المجيد وأنه عدل وجد وحق، وكتاب بهذه المكانة والرفعة والمنزلة يجب أن تطبق جميع تعاليمه وأحكامه كما أمر رب العزة جل وعلا.

د- معنى قوله تعالى (إنهم يكيدون كيدا، وأكيد كيداً، فمهل الكافرين أمهلهم رويدا):

الجملة يمكن أن تكون استئنافاً بيانياً كأنه قيل: إذا كان حال القرآن كما ذكر فما حال هؤلاء الذين يقولون فيه ما يقولون، فقيل: إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا.

الضمير في (إنهم) يعود على مشركي مكة (يكيدون كيدا) يعملون المكايد في إبطال أمر الله وإطفاء نور الحق (وأكيد كيدا) وأجازيهم جزاء كيدهم باستدراجي لهم من حيث لا يعلمون فسمى جزاء الكيد كيداً كما سمى جزاء الاعتداء والسيئة اعتداء وسيئة وإن لم يكن اعتداء وسيئة، ولا يجوز إطلاق هذا الوصف على الله سبحانه وتعالى إلا على وجه الجزاء كقوله ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾(٤)، ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾(٥)، ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾(٦). (فمهل الكافرين) أي لا تدعو بهلاكهم ولا تستعجل به، فالفاء في فمهل لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن الإخبار بتوليه لكيدهم بالذات مما يوجب إمهالهم،

(١) سورة النجم: الآيتان رقم [٦٠، ٦١]
(٢) تفسير الكشاف [٢٤٢/٤].
(٣) تفسير الإمام ابن كثير [٤٣٦/٤]
(٤) سورة التوبة: من الآية رقم [٦٧].
(٥) سورة النساء: من الآية رقم [١٤٢].
(٦) سورة البقرة: من الآية رقم [١٥].

ووضع الظاهر موضع الضمير لذمهم بأبي الخبائث وأمها، وقيل للإشعار بعلة ما تضمنه الكلام من الوعيد (أمهلهم) أنظرهم فكرر وخالف بين اللفظيين لزيادة التسكين والتصبير. (رويدا) مهلاً يسيراً ولا يتكلم بها إلا مصغرة وهي من رادت الريح ترود رواداً تحركت حركة ضعيفة. و(رويدا) إما مصدر مؤكد لمعنى العامل أو نعت لمصدره المحذوف أي أمهلهم إمهالاً رويداً أي قريباً كما أخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن عباس، أو قليلاً كما روي عن قتادة. وأخرج ابن المنذر عن السدي أنه قال أمهلهم حتى آمر بالقتال ولعله المراد بالإمهال القريب أو القليل واختار بعضهم أن يكون المراد إلى يوم القيامة لأن ما وقع بعد الأمر بالقتل كالذي وقع يوم بدر وفي سائر الغزوات لم يعم الكل وما يكون يوم القيامة يعمهم والتقريب باعتبار أن كل آت قريب وعلى هذا النحو التقليل على أن من مات فقد قامت قيامته والظاهر ما قاله السدي وقد عراهم بعد الأمر بالقتال ما عراهم وعدم العموم الحقيقي لا يضر وهو في الأصل على ما قال أبو عبيدة تصغير رود بالضم وأنشد كأنها ثمل تمشي على رود أي على مهل(١).

ما ترشد إليه الآيات المباركات:

أولاً: في نزول المطر من السماء وهو أمر مادي مشاهد رحمة بالإنسان والحيوان.

ثانياً: في إخراج الأرض للنبات وهو أمر مادي مشاهد رحمة بالإنسان والحيوان وهو ما يجعل الإنسان العاقل يسرع بالإيمان بهذا الخالق العظيم الذي أحاط الإنسان بعناية في السماء والأرض.

ثالثاً: في القسم بالسماء والأرض من قبل الله سبحانه وتعالى رفع لقدرهما لأن العظيم لا يقسم إلا بعظيم وهو هنا أقسم بمخلوقين عظيمين من مخلوقاته.

رابعاً: القادر على حفظ حياة الإنسان بالرزق المشاهد المادي من قبل السماء والأرض قادر أن يحفظ عليه عقله وقلبه، بما أنزله من كتاب ليقيم عليه دينه، وهذا ما أقسم الله سبحانه وتعالى عليه بقوله: (إنه لقول فصل)، وبهذا يتم للإنسان النعمتان نعمة الرزق المادي، ونعمة القرآن العقلي وكلاهمها من الله.

خامساً: وجوب احترام القرآن الكريم وتوقيره وتعظيمه، وإجلاله في القلوب.

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام النسفي [٧٩٦/٢]، وروح المعاني [١٠٠/٣٠، ١٠١] بتصرف.

سادساً: وجوب الالتزام بتعاليم القرآن الكريم، وتطبيق أحكامه، وتنفيذ دستوره، والاحتكام لقانونه وشرعه لاشتماله على الحق والعدل (إنه لقول فصل، وما هو بالهزل) وهو لا شك فيه وهو هاد للمتقين ﴿**الم، ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾(١).

سابعاً: أن الله منتصر لأوليائه منتقم من أعدائه الذين يحاربون كتابه وسنة نبيه الكريم ﷺ طال المدى أم قصر، فالمؤمن لا يشك بوعد الله له ووعيده للكافرين.

ثامناً: الإيمان بوعد الله فيه راحة لقلوب المؤمنين، وحث لهم على العمل لخدمة الإسلام وتحفيز لهم على مواصلة الجهاد والكفاح، وعدم الاتكال والأخذ بأسباب النصر، وإعداد العدة المادية والمعنوية بأقصى ما يمكن في سبيل النضال على الرغم من اعتقاد أن الله كائد للكافرين.

هذا ما يسر الله عز وجل وأعان عليه في تفسير سورة الطارق، فله الحمد وله الشكر، ونسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يبارك في قارئه ومستمعه ومقتنيه وكاتبه ومصححه ومموليه، وأن يهدينا سبل السلام وأن يرزقنا العمل بكتابه وسنة نبيه الأمين وصلى اللهم على معلم الناس الخير سيدنا محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين ... والحمد لله رب العالمين ...،

الأستاذ الدكتور
إسماعيل عبد العزيز محمود
أبو شطره
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية
سنة ١٤٢٧ الموافق ٢٠٠٦

(١) سورة البقرة: الآيتان رقم [١، ٢].